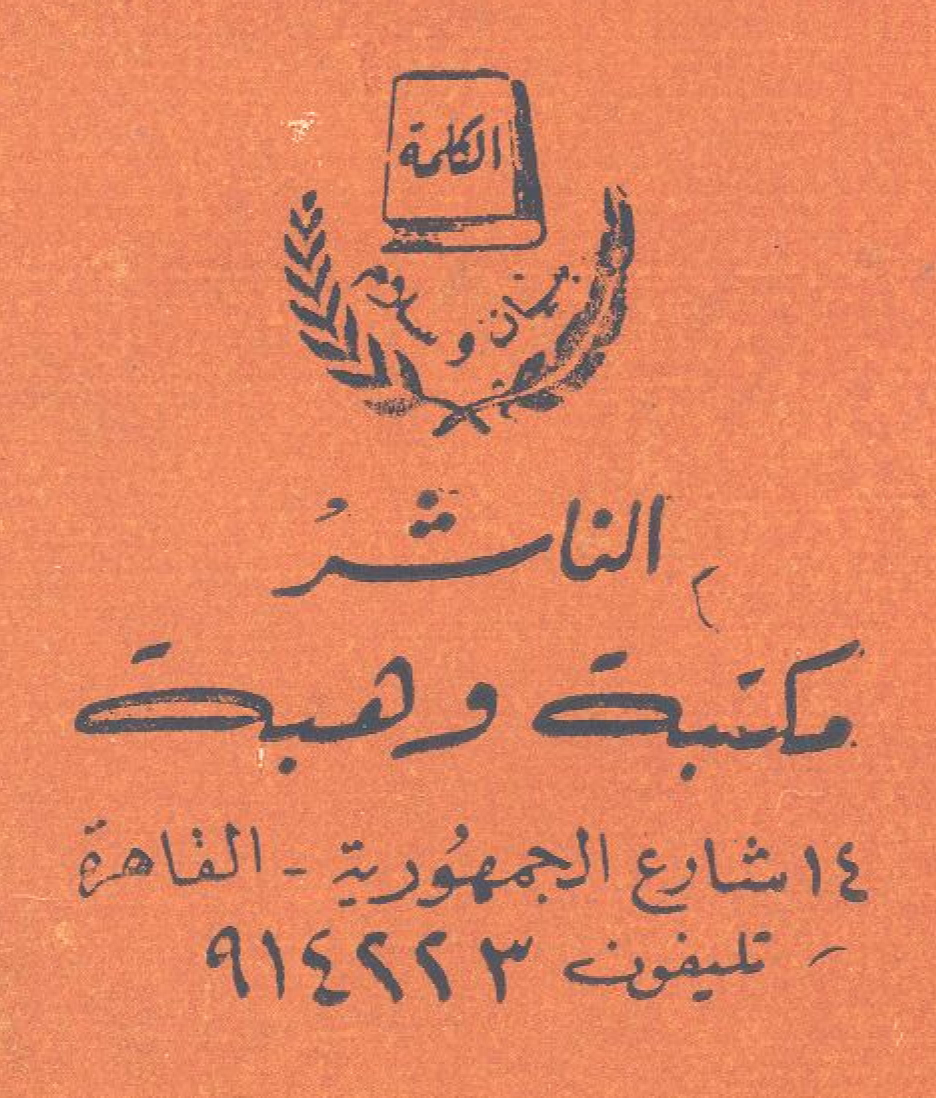
أبو الحسن علي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء بالهند

# النبوة والأنبياء
## في ضوء القرآن




الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - القاهرة
تليفون ٩١٤٢٢٣

أبو الحسن علي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء بالهند

# النبوة والأنبياء
## في ضوء القرآن




الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
تليفون - ٩١٤٢٢٣٠

الطبعة الثانية : محرم : ١٣٨٥ هـ
مايو : ١٩٦٥ م

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحاني بالقاهرة ت ٤٣٤٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

## كلمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . أما بعد : فإن الموضوع الذى آثرته لهذا الكتاب « **النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن** » لم يكن موضوعاً مرتجلا ولا من سوانح الآراء ، إنما هو موضوع كان يجول فى خاطرى من زمن طويل ؛ وأرى معالجته والحديث عنه من أهم البحوث والدراسات التى تشتهد حاجة الطبقة المثقفة إليها ، وأعتقد أن أقوى سبب انحراف هذه الطبقة - الموجهة للشعوب الإسلامية - عن الجادة ، وتخليها عن روح الإسلام الصحيحة وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم المادية المنافية لروح الديانات السماوية ، وتمسكها بالأساليب الصناعية والمناهج الفكرية الغربية حتى فى تفسير الإسلام وفى حقل الدعوة والإصلاح العام . هو بعدها عن منهج النبوة ، وجهلها لقيمتها وفضلها على الحياة والمدنيـــة والعقل الإنسانى ، وشدة حاجة الإنسانية فى جميع أدوارها إلى قيادتها ، وكذلك غفلتها عن سير الأنبياء والرسل وطبائعهم وأخلاقهم .

وقد سنحت فرصة مناسبة للتحدث فى هذا الموضوع (١) فأثارت

---

(١) هذه المناسبة أنى تلقيت فى شعبان عام (١٣٨٢ هـ) برقية من نائب رئيس الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ، صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز — يدعونى فيها أستاذا زائرا لهذه الجامعة

هذا الشعور الكامن ، وهيأت الجو المناسب ، والدوافع النفسية القوية للتفرغ لهذا الموضوع . ولولا هذه المناسبة ، ولولا هذا الدافع القريب لتأجل إلى وقت آخر ، كما تتأجل مواضيع أخرى تتغلب عليها وتشغل عنها حاجات مؤقتة ، أو أعمال رتيبة تملأ فراغ الوقت وتشغل الخاطر .

وكتبت أكثر هذه البحوث فى رمضان ( ١٣٨٢ هـ ) فى قريتى الصغيرة المنعزلة البعيدة عن كل مكتبة ، واعتمدت فيها على القرآن الكريم . وأسستها على دراسته والتدبر فيه ، وكنت أطلب أحيانا بعض المصادر التى أنقل منها بعض العبارات — شرحاً لفكرة أو تأييداً لقول — من مكتبة ندوة العلماء العظيمة فى لكهنؤ .

وها نحن أولاء ننشر هذه البحوث مجموعة فى كتاب ، لا نزعم أنها بحوث مبتكرة أو فتح جديد فى العلم والتحقيق ولكنها إثارة فكر ، وإثارة شعور ، وخطوط عريضة لبحث أكثر تركيزاً ، وكتاب أوسع مادة . وقد تعمدت الأسلوب الأدبى والاجتماعى الخفيف ، وتجنبت أسلوب علم الكلام والعقائد العميق الثقيل ، ولكن رغم ذلك قد احتوت على حقائق وإشارات تطلب التفكير العميق ، وتستدعى البحث الدقيق فى المجتمع الإسلامى المعاصر ، الذى هو فى طور انتقال وتصميم ، ويواجه صراعاً عنيفاً بين القيم والمفاهيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

**أبو الحسن على الحسنى الندوى**<br>**لخمس خلون من محرم الحرام**<br>**١٣٨٣ هـ**

**[ المجمع الاسلامى العلمى**<br>**ندوة العلماء ، لكهنؤ ( الهند )**

# حاجة الإنسانية إلى الأنبياء

النبوة : حاجة الإنسانية إليها ، وفضلها على المدنية

هذا حديث عن النبوة وحاجة الإنسانية إليها ، وفضلها على المدنية . وعن السادة الذين أكرمهم الله بها ، وعن عظيم منزلتهم عند الله ، وكبير فضلهم على الخلق ، وعميق أثرهم في الحياة . وعن إمامهم وخاتمهم الذي خصه الله بالرسالة الأخيرة والنبوة العامة الدائمة ، والإمامة الخالدة والشريعة الباقية ، والكتاب المحفوظ ، وحصر سعادة الإنسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الإيمان به واتباعه . وآثر المدينة المنورة بأن تكون مهجره ومثواه الأخير ، وهناك حصل آخر اتصال السماء بالأرض للوحي و الرسالة ، وهل من حديث آخر غير هذا الحديث الذي هو من فيض الإيمان واستجابة لشعور الحسن والإحسان .

ولما نزلنا منزلا طله الندى　　أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه　　منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

مهمة التعليم الأساسية :

ومهمة كل مدرسة تقوم في الإسلام أن تعنى قبل كل شيء بفهم نعمة

النبوة التى ما أنزل الله نعمة أعظم منها، وتعنى بقدرها وشكرها ، وتجتهد أن تكون من أنصاوها ودعاتها ، وأن تنضم إلى معسكرها ولوائها فى معترك الحياة الذى انتشرت فيه ألوية الجاهلية ورايات الردة والثورة، وأن تنتصر لها فى مجالات الحياة كلها ، من فكرية واعتقادية، إلى عملية وتطبيقية ، و من خلقية واجتماعية ، إلى مدنية وسياسية ، و أن يكون شعار أبنائها ومتخرجيها الدائم، وهدفهم الأسمى: إيثار النبوة ومناهجها على كل فلسفة ومنهاج . وعلى كل منحى وطريق ، وعلى كل أساليب من التفكير ، وعلى كل لون من الحياة ، وطراز من المدنية ، وقسم من أقسام المجتمعات البشرية ، إن هذه المهمة الأساسية هى أهم وأقدم من دراسة جميع العلوم والمواد التى تعنى المدارس والجامعات الإسلامية بدراستها والتوسع فيها ، ومن الشعارات التى تدين بها و تهتف ، فإن المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ولا تزال بين الجاهلية و النبوة — التى يمثلها الإسلام فى هذا الزمان — وكل معركة غيرها معركة شكلية ، أو معركة داخلية ، كما قد يتقاتل أفراد أسرة واحدة على شيء تافه ، أو كما قد يتصارع الأطفال لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة ، فهى معركة الجاهلية والنبوة .

حاجة العصر إلى هذا الحديث :

لقد اشتدت الحاجة إلى هذا الحديث فى كل مكان ، وفى كل مجمع علمى ، وفى كل جامعة كبيرة ، اشتدت الحاجة إليه فى جامعات أوربا وفى ندواتها العلمية الكبيرة ، وفى هيئة الأمم، وفى منظمة الثقافة العالمية، فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة — مع تملكها لجميع

أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء — إلا بثورة قادتها على تعليمات النبوة والأنبياء، وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التى جاء بها الأنبياء والمرسلون، واستغنائهم — وبالأصح — استكبارهم عن ما أكرم الله به النبى العربى الأمى، وقولهم بلسان حال أو مقال: أبشرٌ يهدوننا؟ أأمىٌّ جاء يعلمنا؟، أفقير يحاول إسعادنا؟، أبدوىٌّ يريد أن يمدّننا؟!

ولكننا إذا عجزنا لسوء الحظ — أو لم تسمح الظروف بعد — عن أن نقدم هذا الحديث إلى جامعات أوربا وأمريكا، وإلى جامعات آسيا المدنية، فلا يجوز أن نعجز عن تقديمه إلى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، وكانت المدينة دائماً حقل النواة الكريمة والبلد الطيب الذى يخرج نباته بإذن ربه، وتقول كلمتها فيردد صداها العالم.

### النظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن:

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد - ولا يؤاخذنى القراء فى ذلك - إلى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة إلا فى دائرة ضيقة محدودة من العقائد - ولعلم التوحيد بعض العذر فى وضعه العلمى المحدود، ورسالته التعليمية الخاصة - لكن واجباتنا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن، وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها الواسعة وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة فى الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها فى تكوين السير

وتشكيل المجتمعات ، وقيادتها للمدنيات ، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة فى كل شيء ، متوازية للجاهلية ، مقابلة لها على طول الخط .

## حديث أثير حبيب :

إننا نقرأ القرآن لهذا الغرض، فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها فى هذا الكون ، وهى أجمل مافى مجموع الصور البشرية بالإطلاق ، ونرى أسلوب القرآن فى الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة ، ويفيض بالبشر ، وينم عن الحب والإيثار ، وكأنه حديث أثير حبيب عن أثير حبيب ، فليتسع وليتشعب وليطل وليتنوع ، ولا يتوقف ولا ينقطع . وكل من رزق الذوق السليم، والشعور بالجمال، وعاطفة الحب، استلذ بهذا الحديث، وتذوق هذا الأسلوب ؛ إقرؤا معى قول الله تعالى:

**« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين»** (١).

واقرؤا معى كذلك قوله تعالى : **« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء، ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان**

---

(١) النحل ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

وايوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » (١) .

صفوة الخلق والمثل الكامل للانسانية

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء والاجتباء ، وطوراً بالحب والرضا ، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعلمية ، كل ذلك يدل على أنهم صفوة الخلق ، والمثل الكامل للإنسانية ، ومن أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ، ودعوة الخلق إلى الله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٢) ، فيقول عن إبراهيم : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين »(٣) ، ويقول : « واتخذ الله ابراهيم خليلا »(٤) ويقول « وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين »(٥) ، ويقول : « ان ابراهيم لحليم أواه منيب »(٦) ويقول عن اسمعيل : « وكان عند ربه مرضيا »(٧) ، ويقول

---

(١) الأنعام : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) الأنعام ١٢٤ .
(٣) الأنبياء ٥١ .
(٤) النساء ١٢٥ .
(٥) الصافات ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١
(٦) هود ٧٥ .
(٧) مريم ٥٥ .

عن موسى: « واصطنعتك لنفسي »(١) ويقول : « والقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني »(٢) ويقول : « اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي(٣) » ويقول عن داوود : « واذكر عبدنا داوود ذا الايد انه اواب »(٤) ويقول عن سليمان : « نعم العبد انه أواب »(٥) - وكذلك يقول عن النبي أيوب(٦) - ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاص وإيثار، وحب وإكرام ، وينعتهم بأفضل النعوت: « واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار ، انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفيل وكل من الاخيار »(٧)

وقد استرسلت في هذا الحديث وإن لم يكن جديداً أو غريباً ، وإنما فعلت ذلك لأستحضر منزلة الأنبياء عند الله، ومقامهم الرفيع الحبيب ، ونهج القرآن بذكرهم ، ووصفهم بأفضل الصفات وأزكى النعوت ، وأكرم الأخلاق ، وأشرف السجايا ، وأغنى المواهب .

## تصوير النبوة والمثل الحكيم :

ما مركز النبوة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد — في استقاء معلوماتها وقضاء أغراضها — غالباً على الحواس الإنسانية ، والعقل

---

(١) طه : ٤١ .
(٢) طه : ٣٩ .
(٣) الاعراف : ١٤٤ .
(٤) ص : ١٧ .
(٥) ص : ٣٠ .
(٦) ص : ٤٤ .
(٧) ص : من ٤٥ الى ٤٨

الموهوب ، وتجد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء ؟.. وماهى ميزة الأنبياء بين جماعات العلماء وطوائف العقلاء ؟.. ولماذا كان لهم الحق أن يتحدثوا — هم وحدهم — عن أشياء ، ويتقدموا بأنباء لا تتناولها الحواس القوية والعقول النافذة، وهم جميعاً أبناء بيئة واحدة، وواقفون على صعيد واحد ؟.. لماذا يرون مالا يراه العباقرة من أقرانهم ، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم ، ثم يأتى ذلك مثل فلق الصبح ، وتتحقق نبوآتهم ؟ .

هذا سؤال طبيعى ساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة ، وكان لا بد من مواجهته يوم أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، وأمره بالإنذار وتبليغ الرسالة ، وكان الموقف الذى وقفه خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم من هذه المشكلة ، معجزة كبيرة من معجزاته الخالدة ، فى الحكمة والدعوة والحجة والبيان .

عاشت الأمة العربية — وسكان الحجاز — بعيدة — من مدة طويلة — عن المفاهيم الدقيقة، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت ، وتميزت بسلامة فهمها ، وسرعة إدراكها ، وحبها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم فى شرح مركز النبوة والنبى فى هذه الحياة ، وتبرير حقه فى الإنذار والإنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان والإخبار بما لا يراه الإنسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت .

وكانت جميع المراحل التى اجتازها الرسول الأعظم — صلى الله عليه وسلم — وجميع الوسائل التى اتخذها واستخدمها فى هذه المهمة

المقدسة الدقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلجأون — فى أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم — إلى الصناعة والتكلف ، والاستعارة ، والاستيراد ، ويكوّنون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود .

لم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل إلى « حشر » سكان الوادى إلى مكان مخصوص فى زمن مخصوص ، وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم وملذاتهم ، ويخفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين ؟

كان الرسول عربياً ، يعرف عادات العرب وتقاليدهم ، وشعاراتهم ، وتأثيرها فى نفوسهم ومجتمعهم ، فاستعان بذلك فى سبيل هذه الغاية التى لا غاية أفضل منها .

اعتاد العرب إذا أحس أحد منهم بخطر ، أو بعدو يريد أن يفاجىء ويأخذ القوم على غرتهم ، أو بعدو كامن قاعد بالمرصاد ، قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقى أحدهم قمة جبل أو ربوة ، ويصرخ بأعلى صوته « واصباحاه » فيفزع القوم ، ويأخذون عدتهم ، ويخرجون على بكرة أبيهم لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم .

وماهو هذا الخطر الذى كان يقلق مضاجعهم ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذاتهم ، وما مدى تأثيره وضرره فى حياتهم ؟ عدو يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ، ويستاق إبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار .

هانت هـذه الأخطار والأضرار — على ضخامتها وواقعيتها — في عيون الأنبياء والرسل الذين عرفوا خطر الجهل بصانع هذا الكون ومدبره، وصفاته الحقيقية وحقوقه، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي، وضرر المعاصي والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي: « يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيؤون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف(١) » . فرأى أن هـذا العدو — الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم — أضر وأفتك من كل عدو من الخارج، وأن هذا الخطر — الذي نبع وانبثق من داخلهم — أعظم من كل خطر عرفوه في حياتهم الجاهلية الطويلة، وفي مجتمعهم العربي القبلي، وأن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة، ومن كل جيش، وأن أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر، الذي لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب في الأرض الفساد .

فخرج صلى الله عليه وسلم، وصعد على جبل الصفا — وهو أقرب الجبال إليهم — ونادى بأعلى صوته : «واصباحاه» وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة، وأنه أليق وضع لهذا الإنذار البليغ، والصيحة المفزعة .

---

(١) هذا الوصف المجتمع الجاهلي العربي، الذي كانت فيه بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مأخوذ من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة : ( أنظر سيرة ابن هشام، القسم الأول ص ٣٣٦ طبع الحلبي ) وفي الأصل : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام الخ .

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجل عرفوه فى بلدهم ، وسموه : « الصادق الأمين » ، وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسله طويلة من التجارب والحوادث ، فلم يتأخروا فى تلبية هذا النداء ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله(١) »

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى » ؟(٢)

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربى صلى الله عليه وسلم ، ووجه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ، ولكنهم — كما قلت — كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك ، فاستعرضوا الواقع ، واستعرضوا المحيط الذى وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعى .

رأوا رجلا — جربوا عليه الصدق والامانة والنصيحة وحب الخير — قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وهو الذى اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمل طويل ، أن له الحق أن يتحدث عما فى السفح المقابل من عدو رابض وخطر كامن ، وليس لهم حق — وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل — أن يكذبوه ويسفهوا رؤيته ، على أساس أنهم لا يشاركونه فى هذه المشاهدة ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٨ . (٢) أيضاً .

فقد فرق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحق الشهادة مالم يعطهم .

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين، فقالوا : « نعم » !

وقد نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمة النبوة التى خصه الله بها ، وبلاغته العربيه التى أكرمه الله بها ، وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء ، الفريد الدقيق، ووضعهم الشاذ الذى يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة الجبل من النبوة يطلون منها على الجانبين، الجانب الحسى بحكم بشريتهم وصفاء حسهم وسلامة فطرتهم، والجانب النبوى بحكم النبوة التى يكرمهم الله بها ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الالهيه : « **قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى**(١) »

وليس لأذكى إنسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم وينفى مشاهدتهم ، على أساس أنه لا يشاركهم فى هـــذه المشاهدة ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوز لمن وقف فى سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته وأخبر بما وراء الجبل وتحدث عما وراء الأكمة .

فإذا حاجهم وخاصمهم أسير لحسه، قالوا محتجين مستغربين: « **أتحاجونى فى الله وقد هدان**(٢) ؟» وكان الحزب الأميون أعقل — فى هذه المرحلة البدائية — من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكوا فى الحقائق التى جاؤا بها، على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم : « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** »(٣)

---

(١) الكهف : ١١٠ (٢) الأنعام : ٨٠ .

(٣) يونس : ٣٩ .

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية العقلية التى كان لابد منها ، تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم خطوة ثابتة ، ودخل فى المرحلة الثانية ، المرحلة النهائية .

فقال: « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ... أنذرهم بالخطر الحقيقى الدائم ، الذى يهددهم والذى هو طبيعة هذه الحياة التى يحيونها ، والعقائدالتى يدينون بها ، والأصنام التى يعكفون عليها ، والعادات الظالمة، والأخلاق الجاهلية التى يتمسكون بها ، وبالاختصار ، هذه الجاهلية الجهلاء التى يعيشون عليها ، لاإيمان ، ولا علم ، ولاعدل ، ولاتقوى .

إن طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل فى المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسى ، والعذاب الداخلى فى هذه الحياة : « **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون(١)** » ، « **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (٢)** »

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذى يهون ويصغر أمامه كل عذاب وألم: « **ولعذاب الآخرة أشق(٣)** » ، « **ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(٤)** » « **ولعذاب الآخرة أخزى(٥)** »

لقد اطلع العلماء والفاحصون على خواص الأدوية ، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء والقوى المودعة فى الموجودات ، وكونوا العلوم

---

(١) الروم : ٤١ .
(٢) الم السجدة: ٢١ .
(٣) الرعد: ٣٤ .
(٤) طه : ١٢٧ .
(٥) حم فصلت : ١٦ .

والمعلومات التى انتفع بها الناس ، وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق ، صحيحها وسـقيمها ، وصالحها وفاسدها وما تجر وتستتبع من سعادة وشقاء فى الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار فى الآخرة ، وخصهم الله — بقدر ما يريد — بعلم ما يكون بعد هذه الحياة ، وفى ذلك العالم من حشر ونشر وإنعام وعذاب ونعيم وجحيم:

**« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، الا من ارتضى من رسول »** (١)

لقد وقفوا — صلى الله عليهم وسلم — على جبل النبوة يشرفون منها — بقدر ما يريد الله — على عالم الغيب والشهادة ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية فى المستقبل القريب والبعيد ، ومايكمن لها من خطر وضرر ، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً وحباً وإخلاصاً ، فإذا نازع منازع هذا الحق الطبيعى العقلى ، وهذه البداهة ، وشك أوشكك فى مركزهم ، قالوا فى نصيحة وإخلاص وتألم وإشفاق :

**« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »** (٢)

## الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة :

لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧ . (٢) سبأ : ٤٦ .

الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال ، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل : ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدة الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك : « **الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا ان هدانا الله** (١) » ، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : « **لقد جاءت رسل ربنا بالحق**(٢) » ، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها ، الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهي سورة الصافات ونعى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء فقال في آخر السورة : « **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** (٣) » والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ؛ فلما نزه الله نفسه العلية عما يتفوه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل في

(١) الأعراف : ٤٣ . (٢) الأعراف : ٤٣ .
(٣) الصافات : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

تعريف الخلق بالخالق ، وفى الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على الخلق ، ونعمة على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة ، نختم كل ذلك بقوله : « **والحمد لله رب العالمين** »(١) » .

ضلال الفلسفة اليونانية . وسر شقائها وخيبتها :

إذن : قد ضل وتعب وجاهد فى غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى، المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به، وقدرته عليه، ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد فى ذلك على عقله وعلمه وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه فى بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع، أو العظيم الضخم فى بعض مجالات علمية ، وحق عليهم قوله تعالى : « **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون**(٢) »

وهذا سر ضلال الفلسفة الاغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها ، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغنى ، وملاحمهم العظيمة التى نظموها ، ونبوغهم فى علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس والفلسفة الطبعية ، والنجوم والفلكيات ، فخاضوا فى الإلهيات وفى موضوع الذات والصفات والخلق والإبداع ، فجاؤا بالسخيف المرذول ، وبالمتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال ، والتحكمات والتخمينات التى صدق حجة الإسلام الغزالى رحمه الله فى وصفها بقوله :

---

(١) الصافات : ١٨٢ . (٢) آل عمران : ٦٦ .

« ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطالب فيها تخمينات ، لقيل إنها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون(١) » .

وقال فى موضع آخر : « لست أدرى كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات(٢) » ؟

وكذلك قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمة الله عليه : فيقول معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء : « ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلمون فى غاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا ، بكلام فيه تلبيس وتدليس(٣) » .

وحق عليهم قول الله تعالى : « **اشهدوا خلقهم؟! ستكتب شهادتهم ويسألون**»(٤)، وقوله: « **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا**»(٥)

## عثرة الفلسفة التى نشأت فى العصر الإسلامي

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية — مع الأسف — التى نشأت

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ١١٥ . (٢) أيضاً ص ١٢٤ .

(٣) منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول فى الحاشية ص ٢٧٢

(٤) الزخرف ١٩ . (٥) الكهف ٥١ .

لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها ، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها ، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية ، التي تتعدى حدودها ، ولا تعرف قدرها ، فجاءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات ، وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل ، كأنهم في معمل كيماوي ... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

## انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره ، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه ؛ فاطر هذا الكون ، ومدبر هذا العالم ، وصفاته العالية ، والصلة التي بينه وبين هذا الخالق العظيم ، وموقف الإنسان في هذا العالم ، وموقفه من ربه ، ومبدأه ومصيره ، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه ، وما يشقى الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل ؛ من الثواب والعقاب ، والنتائج البعيدة الطويلة المدى ، وهذا هو العلم الذي يستحق أن يسمى : « علم النجاة » ، والأنبياء مع سمو مداركهم ، وصفاء حسهم ، وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين ، لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم ، ولا يزعمون لهم فيها كعبا عالياً ، ولا يداً طولى . إنما ينقطعون ويتخصصون لما بعثوا له ،

وأمروا به ، وتوقفت عليه سعادة البشرية ، ويكلون هـــذه العلوم إلى أصحابها .

## مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء

وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء ، وينفردون به بين الخلق؛ حاجة الغريق إلى قارب النجاة ، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الإكسير ، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم — مهما علا كعبهم في العلم والمدنية — جهالا أميين، وفقراء مفلسين ، وأطفالا صغاراً ، وكانت على خطر — رغم كل فتوحها العلمية ، وازدهار المدنية — إذا جهلته أو رفضته .. وقد وقعت أمم متمدنة راقية غنية في العلوم والآداب يضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية ، فريسة الإنكار والاستكبار ، والإعجاب بنفسها ، والإدلال بعلومها وصناعتها ، ونظرت إلى ما جاء به نبي عصرهم بعين الازدراء والاحتقار ، وزهدت فيه واستصغرته ، فذهبت ضحية هذا الغرور وهذه السفاهة المصورة بالذكاء ، وقصور النظر الملقب حينئذ ببعد النظر ، والنقد العلمي؛ فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسراً .

## مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم :

إن الفرق الواضح الهائل بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء،

إنما يتجلى بوضوح فى قصة لعلها معروفه ، ولكن لعل أحدا لم يطبقها على هذا الفرق ، ولم يستخرج منها هذه الحكمة الرائعة ، وكم ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات مغزى عميق .

يحكى أن فريقاً من التلاميذ ركبوا سفينة للنزهة فى البحر أو للوصول إلى البر ، وكان فى النفس نشاط وفى الوقت سعة ، وكان الملاح المجدف الأمى خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلة للتلهى وترويح النفس ، وخاطبه تلميذ ذكى جرىء وقال : ياعم : ماذا درست من العلوم ؟ قال : لاشىء يا عزيزى ! قال : أما درست علوم الطبيعة ياعمى ؟ قال : كلا ، ولاسمعت بها ! ، وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنك لابد درست علم الأقليدس والجبر والمقابلة ! ، قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنى أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال : ولكنى متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ ! ، فقال وهل هما اسمان لبلدين أو علمان لشخصين ؟ ، وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ماسنك يا عم ؟ قال : أنا فى الأربعين من سنى ! ، قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ، وسكت الملاح الأمى على غصص ومضض ، وبقى ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب فى السفينة ، وكانت أول تجربتهم فى البحر ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأمى فقال فى هدوء ووقار : ما هى العلوم التى درستموها يا شباب ؟

وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التى درسوها ، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الأمى الحكيم ، ولما انتهوا من عد العلوم التى درسوها ، قال فى وقار تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائى هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة ؟ ! وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة — لاقدر الله — كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام ؟ قالوا : لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذى فاتنا دراسته والإلمام به ، هنالك ضحك الملاح وقال : إذا كنت قد ضيعت نصف عمرى فقد أتلفتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغنى عنكم فى هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، علم السباحة الذى تجهلونه .

هذه قصة الأمم المتمدنة الراقية التى كانت دائرة معارف ، أو موسوعة فى العلوم والآداب ، وكانت زعيمة العالم كله ، فى كل ما أنتجه البشر وتوصلوا إليه فى العلوم والحكمة ، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودعة فيه ، ولكنها جهلت العلم الوحيد الذى يوصل إلى الخالق ، ويعرف به ، والذى تنال به النجاة ، وهو بر السلام ؛ والساحل المقصود ، هو الذى يضبط الأعمال والرغبات ، ويقهر النزوات والشهوات ، ويصلح الأخلاق ويهذب النفوس ، ويردع عن الشر ، ويدفع إلى الخير ، ويلهم خشية الله التى لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الإنسان على التهيؤ للمصير ، والاستعداد للآخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية وحب الذات ، والتكالب على حطام الدنيا ؛ ويلهمه الاقتصاد والسداد ؛ ويمنعه من الجهاد فى غير جهاد .

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التى غلب عليها الزهو والتيه ، واستصغرت

شأن الأنبياء المبعوثين فى عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتياز فى علم من العلوم السائدة فقال : «**فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**[1] » .

## لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول :

وهذه قصة كل أمة بلغت شأوا بعيداً فى العلم والمدنية والصناعة بعد بعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها ، وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار ، من الإفادة من العلم الغزير الذى جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتمسك بأهدابه والسير فى ركابه ، وقصة كل أمة معاصرة تمكنها الإفادة من هذا الدين الخالد ، ومن هذا النور الوضاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء هذا الاستكبار ، ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء فى تعفن حضارتها ، وانهيار مدنيتها .

## الأقطار الإسلامية والعربية فى خطر عظيم

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية فى الإعراض عن هذه التعليمات وهذا العلم الغزير الموجود ، والزهد فى الاستفادة منه ، والتهالك على الحضارة الغربية والقيم المادية والأوضاع الجاهلية والفلسفات القومية أو الشيوعية أغرب ، وهى على خطر عظيم لا يدفعه شئ ، ولا تزال معاقبة بالفرقة والاختلاف والفوضى والثورات والتحاسد والتباغض وعدم التعاون والاتحاد وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو .

---

(١) غافر : ٨٣

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والبحث والتحقيق، كمثل مدينة عامرة، زاهية منظمة، يدخل فيها طوائف مختلفة ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ، فتبحث فى تاريخ هذه المدينة القديمة: من اختطها؟ ومتى قامت وعمرت؟ وما مر بها من أحداث؟ وما تعاقب عليها من حكومات؟

وطائفة من علماء الآثار: فتدرس الألواح والحفائر والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعمليات الحفر، وتعيّن عصورها وتهتدى إلى الحضارات العتيقة المندثرة، والمدارس الدارسة، والعادات القديمة.

وطائفة صناعتها الجغرافية: فهى تدرس حدود هذه المدينة، إلى أين تنتهى؟ وموقعها الجغرافى، والجبال المحيطة بها، المطلة عليها، والأنهار التى تخترقها، ومن أين تنبع؟

وطائفة هوايتها الأدب والشعر: فيستهويها جمال الطبيعة الساحر، والمناظر الجميلة الفاتنة، والنسيم العليل البليل الذى يهب فيها صباحاً، والأزهار والرياحين التى تملأ حدائقها فتهيج فيها الشاعرية، وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق، والمعانى اللطيفة، والأخيلة البديعة.

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد، تتأمل فى اللغة التى يتكلم بها أهل المدينة، فيبحثون فى نشوئها وارتقائها، وتطورها وصلتها

باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المفقودة، ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتبا فى قواعد اللغة، ويضبطون كتابتها .

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ولا ينقص من شأنها ، ولكل وجهة هو موليها ، ولكنها كلها على خطر لو لم تعرف من الذى يحكم هذه المدينة ، وما نظام الحكم ، وما هى القوانين السائدة التى يجب عليها كلها — على اختلاف نزعاتها — الرضوخ لها ، وما هى جباية الرعوية أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة ، وما هى الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة ، وماهى قواعد المرور وقوانين الإقامة فى هذا البلد ، إلى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشرعية فى هذا البلد المنظم .

### مهمة الأنبياء فى هذه المدينة

وتدخل طائفة كاملة المواهب، صحيحة القوى، لطيفة الحس ، رقيقة الذوق، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر، ولكن همّها غير همّ هذه الطوائف كلها ، ودعوتها ومنهاجها غير دعوة هذه الطوائف ومناهجها ، هى تهتدى — وبالأصح يهديها قيّم هذا البلد ويأخذ بيدها — إلى مركز هذه المدينة والمدنية، وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم فى هذه المملكة المنظمة، تتصل به رأساً، وتتلقى أحكامه وإشاراته ، وتبلغها إلى جميع الطوائف، وتتوسط بين إدارة هذه المدينة وبين سكانها، فى التبليغ والدعوة، ولا شك أن جميع الطوائف مدينة لهذه الطائفة فى حياتها واشتغالها بعلومها ومباحثها ، فى هدوء وسلام ، وإن هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر فى كنف هذه المعرفة التى تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة، وتعيش فى حمايتها وظلها، فلولا

هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون، وألقى القبض عليها، وزج بها فى السجون ،وتحولت علومها وجهودها وإنتاجها إلى الأوهام والظنون ، أو على الأقل إلى العبث والمجون ، فإن أساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذى يربط هذه الوحدات، هو معرفة المدبر والمنظم لهذه المدينة الواسعة، والقطب الذى تدور حوله رحى الحياة فى هذا البلد ، وهى المعرفة التى اختص بها الأنبياء واختصت بهم : « **وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** »(١) .

## أهم الواجبات وأقدس المهمات

ويعظم الخطب حين نعرف أن الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم فقط ، إن الحاكم والمنظم لهذا البلد — فى المثال الذى ضربناه — هو خالق هذا البلد الذى أخرجه من العدم إلى الوجود ، وأفاض عليه الحياة ورزقه كل مايحتاج إليه ويصلحه، وهو الرزاق ، وهو الجواد، وهو الغفور الودود : « **هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم** »(٢)

إذن : كانت معرفته بكل العقل ، ومحبته بكل القلب ، وطاعته بكل

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

(٢) الحشر : ٢٢،٢٣،٢٤ .

الجوارح ، وإجهاد النفس وبذل الوسع فى إرضائه ، والتقرب والتودد إليه أهم الواجبات ، وأقدس المهمات ، ومقتضى الإنسانية والمروءة ، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة .

وهذا مركز النبوة والأنبياء ، ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها ، فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد ، وكالعقل بالنسبة إلى العمل . وكالعين بالنسبة إلى الإنسان ، والدنيا بغيرهم — بعلومها وآدابها ومدنياتها وصناعتها — ظلام فى ظلام فى ظلام : «**ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**» (1) .

## العامل الأساسى الأكبر فى صلاح البشرية وارتقاء المدنية :

وليس الأنبياء — صلوات الله عليهم وسلامه — مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب ، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك ، يرجع إليها الفضل فى صلاح البشرية كلها ، وفى ازدهار المدنية كلها ، وهى قوة كراهة الشر وحب الخير ، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد فى سبيله ، هذه القوة التى كانت العامل الأساسى الأكبر فى كل ماقام به البشر من مآثر وبطولات ، ولم تزل الوسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائماً للإرادة الانسانية والعزم القوى ، إن الشأن كل الشأن فى أن يريد الإنسان ، وإن الخير

---

(1) النور : ٤٠ .

كل الخير فى أن يريد الانسان الخير ، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم ، هم الذين كانوا — فى كل عصر من عصور بعثتهم — يبعثون فى أمتهم وفى جيلهم طبيعة حب الخير وكراهة الشر، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد ، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة بهيمية أو سبعية — كما شاهدنا فى الأمم التى قص الله علينا قصتها فى القرآن — عالجوها وحولوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة ، ووجد — بتعليمهم الفاضل وجهادهم المتواصل ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم ومجازفتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم — فى هذه الأنعام السائمة والسباع الضارية ، رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا ، وتجمل بهم تاريخ الإنسانية ، وفاقوا الملائكة فى السمو وعلو المدارك ، وعاشت بهم الإنسانية، وقام العدل ، وانتصف الضعيف من القوى ، ورعى الذئاب الغنم ، وانتشرت الرحمة ، وفاضت المحبة ، ونفقت سوق الشر، وقامت سوق الجنة، وهبت نسائم الإيمان، وتحررت النفوس من ربقة الهوى والشهوات، وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

بقايا النبوة وآثار دعوتها وجهادها :

إن المدنية لا تدين لأى طائفة من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الربانية ؛ إنها تدين لها فى حياتها وبقائها ، وفى شرفها وكرامتها وفى اعتدالها وسدادها ، فلولاهم — صلى الله عليهم وسلم — لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضارى وفلسفة وحكمة ،

ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة أو الوحوش ، لا تعرف ربا ، ولا تعرف ديناً ولا خلقاً ، ولا تعرف رحمة ولا محبة ، ولا تعرف معنى أسمى وغاية أعلى من العلف والرتع ، ومن الماء والكلأ ، ن كل ما يوجد فى هذا العالم من المعانى الإنسانية الكريمة ، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة ، والأخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد ، إنما يرجع فضله وينتهى تاريخه إلى وحى السماء ، وتعليمات الأنبياء وتبليغهم ، ودعوتهم وجهادهم ، وإلى أصحابهم وتابعيهم بإحسان ، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم ، ويمشى فى ضوئهم ، ويعيش فى البناء المحكم الذى بنوه

# سمات النبوة وخصائص الأنبياء

ولنتناول الآن طبيعة النبوة ومزاجها الخاص، وخصائص الأنبياء وما يمتازون به عن قادة الفكر وزعماء الإصلاح من طوائف البشر .

## جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء :

لقد طغت الأساليب الصناعية والمناهج السياسية وطرق القيادة والتنظيم الحديثة ، ومناحى التربية والتعليم التى قامت ولا تزال بدورها فى تعليم الأميين ، ورفع مستوى الحياة ، ومحاربة الفساد ، وتحرير البلاد ، وكل يذكر ويشكر ، ولكنها استولت على العقول والنفوس وانطبعت نفسية أصحابها وسيرتهم ومنابع قوتهم وعزائمهم ، ودوافع أعمالهم وجهادهم ،وأساليب تفكيرهم ومقاييس نجاحهم فى نفوس الناس ، حتى أصبحوا لا يتصورون النبوة والأنبياء إلا من هـــذه الزاوية ، ولا ينظرون إليهم إلا بهذا المنظار ، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين فى العصر الأخير يخضعون فى قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال ، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة ، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته ؛

أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التى يكلفون بها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، ويتجه بالفكر على درب أقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها .

## الحاجة الى دراسة القرآن الدراسة المجردة عن التأثيرات الخارجية :

لذلك اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن فى هذا الموضوع دراسة عميقة حرة ، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوبنا وتطمح إليه نفوسنا ، وقد يكون مما يستحسن ولا يستهجن ، وقد يكون شيئاً طبيعياً ، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء لكل ما يستحسن ، مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق ، فالعصور تتبدل ، ومناهج الفكر تتبدل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل ، وترتفع وتنخفض ، وماحدث فى عصر من نظرية أو مصطلح لايجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق ، فضلا عن القرآن الذى هو كتاب سماوى خالد ، فإنه لا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية ، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل من رمل يتناثر وينبسط ، وينضوى ويمتد ، لا يصلح عليه البناء ، ولا يجوز أن ينزل إليه القرآن من منزلته العالية السماوية ، ومن أساسه المحكم الأبدى .

## الفارق الأساسى بين الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ، أن العلم الذى ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التى يدعون إليها ، والدعوة التى يقومون بها ، لا تنبع

من ذكائهم، أو حميتهم، أو تألمهم بالوضع المزرى الذى يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لاشيء من ذلك، إنما مصدره الوحى والرسالة التى يصطفون لها، ويكرمون بها، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى؛ والقول الفصل فى ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل صلى الله عليه وسلم: **« قل لوشاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون؟ (١) »** وقول الله تعالى: **« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (٢) »** وقال: **« وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين (٣) »**، وقوله بعد ما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التى حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التى يحكيها لقومه: **« وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤) »**، ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التى يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: **« ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون (٥) »**.

---

(١) يونس: ١٦
(٢) الشورى: ٥٢
(٣) القصص: ٨٦
(٤) القصص: ٤٦
(٥) النحل: ٢

لذلك لايخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع ، وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: « **وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحي يوحى** » (١) ، ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلا أو تحويراً أو تعديلا فى رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله: « **قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى، ان اتبع الا مايوحى الى، انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » (٢) » ونفى الله عنه المداهنة وعصمه عنها فقال : « **ودوا لو تدهن فيدهنون** » (٣) وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزى إذا تجنى على الله أو قال مالم يقله ، أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه فقال : « **تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ،لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين** (٤) » ، وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصها ، و برمتها وجملتها ، فقال : « **يأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين** (٥) » .

وهذه هى السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء — صلوات الله عليهم — وبين القادة والزعماء ، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحى بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ،واستجابة للقلق الذى يساور المجتمع ، ويساور النفوس الواعية ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف

(١) النجم : ٣ ، ٤
(٢) يونس : ١٥
(٣) القلم : ٩
(٤) الحاقة : من ٤٣ الى ٤٧ .
(٥) المائدة : ٦٧

والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها فى كثير من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذى يأخذون به : « درمع الدهر كيف دار »

## الحكمة والتيسير فى دعوة الأنبياء وفى التشريع

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لايراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولايراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح ، ونشاط النفوس وإقبال القلوب ، ولا يراعون التدريج والتيسير ، كلا ! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة ، وحكمة الله البالغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ، وقد قال القرآن : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** (١) » وقال : « **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**(٢) » وقال : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** (٣) » ، وقال : «**وما جعل عليكم فى الدين من حرج** (٤) » .. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبى لما بعثهما إلى اليمن : « يسرا ولا تعسرا ، بشرا ولا تنفرا(٥) » وقال لأصحابه : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين (٦) » وقد كان يرجىء تطبيق شىء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هى أعظم

---

(١) الاسراء : ١٠٦ (٢) الفرقان : ٣٢ (٣) البقرة : ١٨٥
(٤) الحج : ٧٨ (٥) صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٢
(٦) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٥

وأهم منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : « لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليـــه السلام(١) » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام ،كراهة السآمة علينا(٢) » وعن جابر بن عبد الله : « كان معاذ بن جبل يصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يرجع فيؤم قومه ، فصلى العشاء، فقرأ بالبقرة ، فانصرف الرجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «فتان فتان فتان» ثلاث مرات(٣)» وعن ابن مسعود قال : قال رجل يا رسول الله : إنى لأتأخر عن الصلاة فى الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيته غضب فى موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ ، ثم قال : «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أم منكم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجه (٤) » والنصوص فى ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى (٥) ، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته صلى الله عليه وسلم ، مفروض فى سيرة الأنبياء السابقين ، للحكمة التى وصفهم الله بها : **« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب(٦) »** ، و **« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة(٧) »** .

---

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ (٢) صحيح البخارى
(٣) صحيح البخارى (٤) صحيح البخارى
(٥) إقرأ الفصل النفيس : باب التيسير فى حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى ج ١
(٦) ص : ٢٠ (٧) الانعام : ٨٩

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء، أما ما كان من العقائد والمبادئ والفرائض والنصوص، وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله، فالأنبياء عليهم السلام - على اختلاف عصورهم - أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لا يعرفون تنازلا ولا هوادة، ولا يرضون مساومة.

## أعظم ركن دعوة الأنبياء: إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له

والسمة الثانية هي أن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية: «أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكا، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام(١)».

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

وكل من له صلة بالقرآن — وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة — يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدأون، وإليها ينتهون، والقرآن تارة يقول بالإجمال: « **وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون** (١) » وتارة يقول بالتفصيل، فيسمي نبياً نبياً، ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد فقال: « **ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم أليم**(٢) »، « **والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره، ان أنتم الا مفترون** (٣) »، «**والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره، هوانشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب**(٤) »، «**والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان، اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط**(٥) ».

أما إبراهيم: فدعوته إلى توحيد الله، ونبذ الأصنام والأوثان أوضح وأصرح؛ ففي سورة الأنبياء: « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من**

---

(١) الأنبياء: ٢٥
(٢) هود: ٢٥ — ٢٦
(٣) هود: ٥٠.
(٤) هود: ٦١
(٥) هود: ٨٤

قبل وكنا به عالمين . اذا قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين(١) » ، وفى سورة الشعراء :« واتل عليهم نبأ ابراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذا تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين(٢) » ، وفى سورة مريم : «واذكر فى الكتاب ابراهيم ، انه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا(٣)» وفى سورة العنكبوت: « وابراهيم إذ قال لقومه اعبدو الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، اليه ترجعون(٤) » ، وفيها : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين(٥) » .

وكذلك يوسف فقد جاء فى القرآن فى موعظته البليغة الحكيمة فى السجن : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله

---

(١) الأنبياء : من ٥١ إلى ٥٤ (٢) الشعراء : الآيات من ٦٩ إلى ٨٢
(٣) مريم : ٤٠ ، ٤١ (٤) العنكبوت: ١٦ ، ١٧ (٥) العنكبوت : ٢٥

**وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ، ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبي السجن : أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ماتعبدون من دونه الا أسماء(١) سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا الله أمر أن لا تعبدوا الا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٢)** » وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذي كان يدعى أنه مظهر للشمس : الإله الأكبر عند قدماء المصريين ، فيقول : «**انا ربكم الاعلى**» ، وقد قال حين سمع دعوة موسى : « **يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري** .. الآية (٣) » ، وقال : **لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين** (٤) »

وقد سمى القرآن عبادة الأوثان : الشرك الأكبر والرجس وقول الزور ، وشنع عليه التشنيع الأعظم ، فقال في سورة الحج : « **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، واحلت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير**

---

(١) كلمة الأسماء تدل على أن معبوداتهم كانت أشخاصاً مقدسة موهومة إما لاوجود لها أصلا كما يوجد في نظام الشرك وعقائد المشركين كثيراً ، وإما كان لها أصل ووجود ولكن ليس لها من الألوهية والربوبية نصيب ، وكذلك قال هود لقومه : « أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان » وذكر الأسماء دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناما بأسماء الماضين

(٢) يوسف : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ (٣) القصص : ٣٨

(٤) الشعراء : ٢٩

**أو تهوى به الريح في مكان سحيق(١) » .**

## الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر

إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التأله لغير الله ، وغاية التذلل له والسجود والدعاء والاستغاثه والنذر والذبح له ، هي الجاهلية الخالدة العالمية التي هي من أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني ، وتهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات : « **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين(٢)** » تهبطه من درجة مسجود للملائكة ، إلى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات ، والخسيس من الموجودات ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضي على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الانسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير . الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تحد ، وخزائنه التي لا تنفد ، إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذي لا يملك شيئاً : « **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيمة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغني الحميد(٣)** »

---

(١) الحج : ٣٠ ، ٣١ (٢) التين : ٤ — ٥

(٣) فاطر : ١٣ ، ١٤ ، ١٥

## فهم الصحابة والعرب الأولين : لكلمات القرآن ومصطلحاته

هذه الوثنية — فى دائرة مابعد الطبيعة — بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة ، كانت موضوع جهاد الأنبياء فى كل عصورهم، وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهو الذى أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا : « **أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق**(١) » . ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى واطلع على أخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التى سردناها إلا هذه الوثنية السافرة ، وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس أشخاص الماضين أو الموجودين، والسجود لهم ، والدعاء منهم، والذبح والنذر لهم، والحفاوة بأسمائهم ، والتقرب إلى الله بعبادتهم ، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التى لا ترد ، وطلب النفع والضر ، وكشف الكربة منهم ، ولا يفهمون من معنى الاله ، والرب ، والعبادة ، والدين، إلا هذه المفاهيم الدينية، ؛ وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ، ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

## ما يجب أن يكون الركن الأساسى . فى الدعوات الدينية

## وشعار الدعوة فى جميع العصور

ولا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وحركات

---

(١) سورة ص : ٥ ، ٦ ، ٧

الاصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد : « وشعار جميع الدُّعاة إلى الله ، وجميع المصلحين المجاهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون (١) » .

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله ، والتحاكم إلى غير الله ، وقبول التشريع غير الإلهى ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع فى الهامش من منهاج دعوة أو جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة ، والحكم السياسية ويحكم عليها حكما واحداً ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المختلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها ، فإن هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن ، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الإصلاح

## وصية للشباب والدعاة والكتاب

وإنى لأوصى دعاة المسلمين ، وأخص شباب الجامعات الذين سيتخرجون دعاة مصلحين وكتابا مؤلفين ، وقادة موجهين ، وصية هى عصارة تجارب ودراسات طويلة ، واسوف يعرفون قيمتها وأهميتها بعد التجربة الطويلة : إياكم أن تعطى كتاباتكم وعرضكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطوال فى جهل متصل عن فهم هذا الدين

(١) الزخرف : ٢٨

الذى هو دين كل عصر وجيل . وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقى هذه المدة الطويلة لا يفهم على حقيقته وأنه بقى مطويا على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**(١) » ، والوعد بالحفظ فى موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير فى كتاب يبقى ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله « **إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه**(٢) » .. وهذا الأسلوب من التفكير الذى قد يتجه إليه بعض الكتاب والمفكرين فى هذا العصر يرى هذه الأمة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكرى الدائم ؛ والشجرة التى بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطى ثمارها ، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير .

وذلك لا شك نتيجة ما نالته لمعانى السياسة والمؤسسات السياسية والتنظيمات فى عصرنا من الأهمية بتأثير النظم والثقافات الحديثة .. وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم ويريد أن يسود النظام الإسلامى، ويقوم الحكم الإسلامى فى جميع أقطار المسلمين قد يقع فى هذا التفريط والإفراط — ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يجندلها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأقلامهم ، ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يخضعوا القرآن لهذه الغاية .. والنصوص الداعية إلى هذه الغايات، الحاثة عليها . الموجبة لها ، وافرة كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل .

(١) الحجر : ٩

(٢) القيامة : ١٧ ، ١٨ ، ١٩

عقيدة الآخرة والاهتمام بها فى سيرة الأنبياء ودعوتهم :

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها أو الإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويها يجعلها من النقط الأساسية فى دعوتهم ، ويشعر كل من من يعيش فى أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائما نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة فى حنين شديد ومن جهنم فى فزع كبير ، وهو شىء طبيعى قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم ، وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها « **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين** (١) .

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو فى أوج أبهته وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع فى مصر — أرقى مملكة وأخصب بلاد فى ذلك العصر — وقد أقر الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقر عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان فى ذلك

١ — الشعراء ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

ما يرضى الطموح ويزهى عالى الهمة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هى التى تسيطر على يوسف ، وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً ، فيقول شاكراً داعياً ، راضياً وجلا : **« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين(١) »**

الحافز الحقيقى إلى الدعوة وبذل النصح :

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها — من سعادة دائمة أو شقاء دائم ، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من ثواب ، وللكفار العصاة من عقاب — هو الحافز الحقيقى إلى دعوتهم وبذل نصحهم ، وهو الذى يقلقهم ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ؛ وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم ، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم ، فيقول القرآن عن نوح ، وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل : **« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . ان لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم(٢) . »** ويقول عن هود وهو أقدم الأنبياء ، وقد بعث فى قوم تهيأت لهم أسباب العيش ، وتوسعت لهم الدنيا ، وطابت لهم الحياة :

---

١ — يوسف ١٠١ ٢ — هود ٢٥ ، ٢٦

**واتقوا الذى الذى امدكم بما تعلمون ، امدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون . انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١)»** ، ويقول عن شعيب وقد بعث فى قــوم لانَ لهم العيش ، وانتشر فى أرضهم الخصب **« انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط(٢) »**

سيطرة هذه العقيدة على اتباع الرسل :

وقد تعدت هذه الفكرة — بقوة تأثيرهم ـ إلى اتباعهم والمؤمنين بهم ، وتجلى لهم قصر مدى هذه الحياة، تفاهتها ، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها ، وأنها الجد الذى يجاهد فى سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيــه المتنافسون ، فقال مؤمن آل فرعون : **« يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهـو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيهـا بغير حساب» (٣)** وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى لمَّا أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به ؟ : تقطيـع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب فى جذوع النخل : **« قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطـرنا فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هـذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت**

---

(١) الشعراء من ١٣٢ إلى ١٣٥

(٢) هود : ٨٤ — وفى روح المعانى : « فالمراد عذاب يوم القيامه ، أو عذاب الاستئصال فى الدنيا .

(٣) غافر : ٣٩ ، ٤٠

**فيهـا ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمـل الصالحـات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى**(١) » .

منـاط الأمر : الثواب والجزاء فى الآخرة :

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يطمعوا أمتهم فى ملك أو سيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ، ينكرون على حب العـلو والاستعلاء ، والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردى أو "القومى" وقد جاء فى القرآن : « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين** (٢) » ، إنما يطمعونهم فى رحمة الله ، ويخوفونهم من عذابه ، ويجعلون منطاط الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة ، إنما يذكرون أن هذا الإيمان و الطاعة و الاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق ، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق ، فيقول نوح : « **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** (٣) » ويقول هود : « **وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ،**

---

(١) طه : من ٧٢ الى ٧٦ (٢) القصص : ٨٣

(٣) نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢

يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولاتتولوا مجرمين(١)»
وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتهما التى لا تتخلف عنهما ،
كطبائع الأشياء، وخواص الأدوية، ونواميس الفطرة .

## سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزهد وإيثار الآخرة على الدنيا :

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة ، وإيثارها على الدنيا ، والاستهانة بقيمتها ومتاعها ، دعوة باللسان فقط ، ودعوة لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدأ ومنهاجا لحياتهم ، وكانوا من أول المؤمنين بها ، السائرين عليها فى حياتهم وخواصهم وعشيرتهم ، وقد قال شعيب معبراً عن جماعته كلها : « **وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه**(٢) » فكانوا زاهدين فى الدنيا ، مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا فى المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحوا بها فى سبيل دعوتهم ، وفوتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر فى الحياة والغد المضمون ، وكانوا من « اللامعين » فى المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم ، وصلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح ، إذ قالوا : « **يا صالح قد كنت فينا مرجوا**(٣) » وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل صلى الله عليه وسلم : « **يا ايها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد**

(١) هود : ٥٢ — (٢) هود : ٨٨
(٣) هود : ٦٢

**للمحسنات منكن أجرا عظيما** (١) » وكان من تأثير صحبته أن أزواجه — رضى الله عنهن — كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ، على الرخاء وخفض العيش مع غيره ، ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته وحياة أهل بيته معروفة فى التاريخ ، معروفة فى السيرة النبوية ، تثير العجب ، وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمة ومهابة ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة منارا عاليا من نور ، وكان شعارها الدائم : « **اللهم لا عيش الا عيش الآخرة**(٢) » ودعاؤها المقبول : « **اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا** (٣) »

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية :

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة ، أو الإشادة بها «كضرورة خلقية ، أو كحاجة إصلاحية، لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة ، فضلا عن المجتمع الإسلامى ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافا واضحاً، والفرق بينهما أن الاول -منهج الانبياء - إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته ، والثانى اعتراف وتقرير ، وقانون مرسوم ، وأن الأولين يتكلمون ( عن الآخرة ) باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوة ،

---

(١) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩ (٢) صحيح البخارى

(٣) صحيح البخارى

وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ،والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي ؛ وشتان مابين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية(١) .

● مطالبة بالإيمان بالغيب :

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة ، أنها تشدد على الإيمان بالغيب(٢) وتجعله شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين ، وشعاراً المهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال : « **الم ،ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم والئك هم المفلحون**(٣) » وتطالب به فى قوة وشدة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون فى الإسلام — هو دين جميع الأنبياء — أن يصدقوا بصفات الله العلية ،وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التى تتحدى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً ، ويصدقوا بكل

---

(١) للمؤلف فى تأملات فى سورة الكهف المنشورة فى « المسلمون »

(٢) قال العلامة أبو السعود فى تفسيره:الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لايدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة ، وهو قسمان:قسم لا دليل عليه ، وهو الذى أريد بقوله سبحانه وتعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » وقسم نصب عليه دليل ، كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر ، وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء .

(٣) سورة البقرة: ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

ما جاء عن الرسل ، وذكر فى الكتب السماوية ، مما لم يجر به البشر ، ولم يصدقه الحس ، ولم تألفه العقول ، اعتماداً على إخبار الرسل وحده ، وصدقهم فى ما يروونه وينسبونه إلى الله ، واعتماداً على أن الله على كل شيء قدير ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وهو الخلاق المبدع ، فعال لما يريد ، لا يحتاج إلى الأسباب التى خلقها ، ولا يتقيد بسننه التى سنها ، لقد خلق الأسباب ، وسن السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وأنه لم يفلت منه زمامها ، وهى لم تستقل بوجودها وإرادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، « **انما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون** »

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله وبالمعجزات والخوارق التى لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان بقدرة الله المطلقة ، ومشيئته القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الإيمان الذى لم يقم إلا على الحس والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدون فى الكتب ، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدق به ، أو يتعثر ويتلجلج فى قبوله والتصديق به ، أو يؤوله تأويلا يتفق مع ما ألفه ، ولذلك قال : « **بل أدارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون**(١) » وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين : فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل ، وشرح صدره للإسلام ، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصور هذا الفرق تصويراً

---

(١) النمل : ٦٦

دقيقاً فقال : « **فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون(١)** » .

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله مالا يقبل ولا يصدق إلا بالإيمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، مالا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقلي ، ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك ، وخروج عن قوانين اللغة العربيـــة ، وجراءة على الله ، وتجن على اللغة وأبنائها ، ووقاحة شديدة(٢) ، كانفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فريق منهم قردة خاسئين ، وحياة المقتول الذي جهل قاتله ، بضرب جزء من البقرة المذبوحة ، وتحول النار برداً وسلاما على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي علمه سليمان ، وفهمه لحديث النمل . ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به غدوها شهر ورواحها شهر ، وانتقال عرش ملكة ســـبأ في طرفة عين ، وقصة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وإسراء الرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(٣)

---

(١) الأنعام : ١٢٥

(٢) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان ومحمد علي اللاهوري .

(٣) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة .

ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان الذى آمن بالله الذى وسعت قدرته كل شيء .

ذلك لأن الإيمان الذى يقوم على الحس والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيد بالسنن الكونية ، والنواميس الطبعية ، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواس الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، إنما هو إيمان مقيد مغلول ، وإيمان محدود مشروط ، لا يصلح للاعتماد ، ولا يساير الأديان ، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء وما يطلبونه من تصديق مطلق ، وثقة دائمة ، وسرعة فى الانقياد والطاعة ، وتفان فى الجهاد والتضحية ، ولا يصلح فى الحقيقة لأن يسمى إيمانا ، إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق ، وطاعة للحواس والتجارب ، ولا فضل فيه ، ولا يختص بالدين ؛ فكل عاقل فى حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه . وما تؤدى إليه حواسه ، ويرشد إليه عقله .

وصاحب هذا الإيمان « الطبيعى » فى عناء وبلاء مع الكتب السماوية ، والأديان الإلهية . وفى صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين : (١) « رجل خشبية لا تطاوع صاحبها فى سرعة المشى ، ورفع الخطا بحرية ، وكثرة التنقلات والاتجاهات » وهو إما يلجأ إلى التحريف أو التأويل البعيد ،

(١) هو الشيخ جلال الدين الرومى صاحب المثنوى المشهور .

وإما يضطر إلى الإنكار والإلحاد ، بناءاً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد ، والحقائق التى جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التى هى مبنية على استقراء محدود ، فقال تعالى : « « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**(١) »

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة ، المصدق للرسل فى كل ما جاؤا به ، وما نطقوا به ، وأخبروا عن الله ، فهو فى راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم استراح ، جاهد وفكر فى الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته فى ما يقول : « **وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى** (٢) » ثم آمن واطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ، وصح به النقل فى سهولة ويسر . كأنه كان منه على ميعاد ؛ وكان له على أتم الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذى أخضع عقله للصحيح من المنقول ، والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذى يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل ، لعقله العاجز وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال : « **هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن ام الكتاب واخر متشابهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تاويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر الا**

---

(١) سورة يونس : ٣٩ ، (٢) سوة النجم : ٣ ، ٤

**اولوا الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب .** (١) وذكر نفسية الرجل الذى تعود أن لا يؤمن، وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله — الظاهر السطحى — وشهواته ومصالحه فقال : **« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين**[٢] .

إن أدبنا الإسلامى — مع الأسف — ونظامنا التعليمى الدينى ، وأسلوب الدعوة ، قد قصر تقصيراً كبيراً فى الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة ، وتساهلَ فى دعمه وتغذيته والإلحاح عليه ، وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين — مع مالهم من فضل فى عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان — إلى صياغة عقلية جديدة للدين ، يتفق معها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك — إلى حد ومن غير إرادة — على روح الإيمان بالغيب ، واعتاد الشباب الإسلامى المثقف أن لا ينشط إلا للمألوف المقرر ، الواقع المتكرر فى الحياة الطبعية ، أما ما شذ عنه ، وخرج عليه ، واحتاج فى تصديقه إلى إيمان أعمق وأوسع ، واعتماد على صدق الخبر ، فانه لا يقبله إلا على مضض وجهد ، ولا ينشط له ، ولا يرحب به ، ويرى فى ذلك منافاة لما سمع وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم ، ولا شك أن الإسلام كذلك ، ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولكن العقل الإنسانى طبقات ومستويات ، فعقل البدوى ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة فى عصرنا من عجائب المصنوعات ، ومرافق

---

(١) سورة آل عمران ٧ ، ٨ . (٢) سورة الحج : ١١ .

المدنية ، وعقل العامى ينكر ما وصل إليه الإنسان فى العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ ، له حدود يقف عندها ، ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، يعجبنى فى ذلك كلمة لنابغة العرب ، بل نابغة الدنيا فى فلسفة التاريخ وعلوم العمران ، العلامة ابن خلدون ، قال رحمه الله :

« ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه رأيه فى ذلك ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك فى بادى رأيه منحصر فى مداركه لا يعدوها ، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولو لا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ، لكنهم يتبعون الكافة فى إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية ، فاذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك فى الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق

إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به امور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الآلهية ،وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ،وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته ،فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه(١)».

● البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة:

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف فى حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفى دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد كان قول آخر الرسل صلى الله عليه وسلم: « **قل ما اسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين**(٢) » تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم ، فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة ، والعقل العام ، بأسلوب فطرى غير ذى عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر ، وعلم فائق وألمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم ، وإحاطة بالمصطلحات العلمية ، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات ، وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه

(١) مقدمة ابن خلدون ، علم الكلام ، ص : ٣٦٤ ، ٣٦٥ طبعة التقدم .
(٢) سورة ص: ٨٦ ، ٨٧ .

الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كل على قدر فهمه وطاقته ، ويطابق حال الأمم التى تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة الثقافة العالية ، ولا يسألون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها ، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذى يسيغه كل واحد ويحتاج إليه ، وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوى فى الإشارة إلى هذه النكتة فى كتابه الفريد : «حجة الله البالغة» يقول رحمه الله :

« ومن سيرتهم — الأنبياء — أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التى خلقوا عليها ، وعلومهم التى هى حاصلة عند غيرهم بأصل الخلقة ، وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وجد فله فى أصل الخلقة حد من الإدراك ، زائد على إدراك سائر الحيوانات، إلا إذا عصمت المادة جداً ، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو برياضيات شاقة تهيىء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب ، أو بممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة .

« فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة ، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات، ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يعرفوه منزها عن جميع الجهات، فإن ذلك كالممتنع ، بالإضافة إلى من يشتغل بالرياضيات ، ولم

يخالط المعقوليين مدة طويلة ولم يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات، ووجوه الاستحسانات، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأى على أهل الحديث».

« ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان، ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها، اللهم إلا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم، وقبلتها عقولهم يؤتى بها فى التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله، على سبيل الاستطراد، بكلام إجمالى يسامح فى مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات».

« ولهذا الأصل لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن علة نقصان القمر وزيادته، أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور، فقال: « **يسألونك عن الأهلة. قل هى مواقيت للناس والحج** »، وترى كثيرا من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم (١) ».

وقال فى ضمن بيان أسباب التيسير فى هذا الكتاب.

«ومنها أن الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع فى أصل خلقتهم قبل أن يتعاونوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت

---

(١) حجة الله البالغة: ج ١ ص ٨٦: طبع المنيرية القاهرة

لنفسه جهة فقال : « الرحمن على العرش استوى » وقال النبى صلى الله عليه وسلم لامرأة سوداء : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فقال : هى مؤمنة ! ولم يكلفهم فى معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة ، وأشار بقوله : « القبلة ما بين المشرق والمغرب » إذا استقبل الكعبة إلى وجه المسألة ، وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون » والله أعلم (١) »

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزالى وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام ، والفرق بينهما ، قال رحمه الله :

« فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون ، بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبي والرضيع ، والرجل القوى ؛ وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا (٢) » ؛ وقد قال الإمام الرازى — كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً فى كتبه — لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى . (٣) »

وقد أفضت فى هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول فى هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ومنهاج الأنبياء وسيرتهم فى الدعوة والبيان ، وفى حياتهم الخاصة وفى حياتهم مع الناس . وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة حتى صار

(١) حجة الله البالغة : ج ١ ص ١١٣ : طبع المنيرية القاهرة
(٢) الجام العوام عن علم الكلام : المطبعة الميمنية: ص ٢٠
(٣) كتاب النبوات لابن تيمية : ص ١٤٧ ، ١٤٨

الناس فى غفلة بل واستهانة لطريق الأنبياء وسيرتهم والتوى عليهم فهم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أسلوبه الحكيم ولجأوا إلى تأويلات وتكلفات ولا تزال سيرة الأنبياء فى الدعوة هى السيرة المثالية ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطرى البليغ الحكيم الذى يقنع العقول ويفتح القلوب فى كل عصر ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافى والدواء الشافى : « **تنزيل من حكيم حميد** »

# أئمة الهدى وقادة الإنسانية

عبث القادة والزعماء بالإنسانية :

لم يزل الجيل البشري فى تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس(١) يطويه وينشره ، ويمده ، ويكوره ، ويمزقه إذا شاء ، ويحرقه إذا شاء ، وهانت عليهم الحياة الانسانية وطاقاتها ، وملكاتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفانى والاعتماد على القادة ، فلم يتقوا الله فيها ، ولم يراعوا فيها حقا ولا حرمة ، ولا إلا ولا ذمة ، واتخذوها مطية لشهواتهم ونزعاتهم ، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم ، وقد جر عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم

---

( ١ ) مأخوذ من شعر البحترى فى قوله

ان الخطوب طوينى ونشرننى ... عبث الوليد بجانب القرطاس

من الخطأ والضلال ، وسوء الفهم وسوء التعبير أحياناً ؛ والشهوات التي ركبوا عليها ، والنزعات والأنانية — الفردية والقومية — والعصبية الجنسية والوطنيـــة ، قد جر كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاء طويلا ، وويلا عظيما ، وأفقد الثقة بقيادتهم ، وشكك تشكيكا كبيراً في إخلاصهم، وصحة معلوماتهم،وحسن قصدهم، وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم وإشرافهم ، والتاريخ الإنساني مليئ بهذه المآسي والمهازل ، والمضحكات المبـكيات ، ولاتزال شـــعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين ، يلعبون بها ، ويتداولونها كالكرة ، ويجرون عليها عمليات وتجـارب جديدة كثيرة ، يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليل ، وقد يفضحها ويزيح عنها الستار من يتسلم القيادة منهم ويخلفهم ، وقد يسجل عليهم ذلك التاريخ ، وتشعر به الأجيال الآتية .

### الحاجة الى الانبياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هـــذه التجارب المخفقة ، والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير ، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا ،والنجاة في الآخرة ، والتي تشكل الأخلاق الصحيحة ،وتكون المدنية الصالحة . والعبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه ،والشرائع التي تنظم حياته ، فالعثرة في ذلك لاتقال ، والكسر في ذلك لا يجبر

فمست الحاجة إلى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام

والأخطاء، مبرئين من كل طمع ومساومة، وطلب مكافأة ومقابل وربح مادى، لا تتغلب عليهم الشهوات، ولا تؤثر فيهم النزعات، لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة، وإذا صدر منهم خطأ فى الاجتهاد والتقدير نبهم الله إلى ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه .

## أمانة وإخلاص :

ولذلك تقرأ فى سورة الشعراء، أن كل نبي يبعث على أمته يؤكد لهم أمانته وإخلاصه، واقرؤا معى الآيات التالية .

**١ — « كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون . انى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما اسالكم عليه من اجر ان اجرى إلا على رب العالمين . (١) »**

**٢ — « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون إنى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما اسالكم عليه من اجر إن اجرى الا على رب العالمين . (٢) »**

**٣ — « كذبت ثمود المرسلين . اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون انى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما اسالكم عليه من اجر ان أجرى الا على رب العالمين . (٣) »**

---

( ١ ) الشعراء ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩

( ٢ ) الشعراء ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧

( ٣ ) الشعراء ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

٤ — « كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين . (١) »

٥ — « كذب اصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب الا تتقون . انى لكم رسول امين . فاتقوا الله وأطيعون . وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين . (٢) »

هذه الوحدة التى تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين فى أمم مختلفة وفى عصور مختلفة ، ذات معنى عميق ؛ وهو أن الأمانة وهى الكلمة الجامعة بين معانى الصدق وصحة التلقى من فوق ، التلقى من الله العليم الحكيم ، وصحة الإلقاء إلى أسفل ، إلى الأمة التى يبعث فيها النبى ، هو الركن الأساسى فى مفهوم النبوة والرسالة ونظامها ، ولا أجمع لهذه المعانى ولا أبلغ من كلمة : « الأمانة » ـ فى لغة العرب ـ وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين .

وكذلك الإخلاص والنزاهة ، والبعد من كل طمع ، والزهد فى كل منفعة شخصية ، أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد ، وقد اتفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب

---

( ١ ) الشعراء ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤
( ٢ ) الشعراء ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠

هذا الداعيـــة المخلص ، الناصح الأمين ، ولذلك قال صالح فى أسف واستغراب: « ... **ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** . (١) » وقال الموجه الكريم الذى جاء من أقصى المدينة يسعى: « **ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون** (٢) .

وهذا هو المعنى الذى أكده موسى عليه السلام لفرعون فقال :

« **وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا اقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل** . (٣) »

## أمان وضمان للأتباع :

وقد كان فى هذه « العصمة » والأمانة والنزاهة ، التى اتصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم فى العقائد والشرائع ، وأمان عما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع فى المهالك، والتورط فى الشبهات ، والحيرة فى أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتباعهم .

## حقيقة العصمة وطرقها :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه: « حجة الله البالغة » وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السبل ومقيموا الملل — يعنى الأنبياء — سلام الله عليهم ،يقول رحمه الله :

---

(١) الأعراف : ٧٩ (٢) سورة يس : ٢٠ ، ٢١

(٣) الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥

« ثم لا بد له — لهذا العالم — أن يثبت على رؤس الأشهاد، أنه عالم بالسنة الراشدة ، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والاضلال ، ومن أن يدرك حصة من الاصلاح ويترك حصـــة أخرى لابد منها ، وذلك ينحصر فى وجهين : إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم ، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفحمهم أن يكون هو الذى انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه ، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع ، يكون فيهم ، أو تكون الرواية محفوظة عندهم ،وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف فى المعاش ولا بالحس ، بل هى أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان ، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان . فكذلك معرفة ملاءمة الشىء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم ، وكونه مأموناً عن الخطأ فى نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الابصار ، فانه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤفة وأن يكون الابصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغويه ، فإن العربى مثلا لا يشك أن الماء موضوع

لهذا العنصر، ولفظ الأرض لذلك ، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان، وليس بينهما ملازمة عقلية . ومع ذلك فانه يخلق فيه علم ضرورى ، وإنما يحصل ذلك فى الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية ، يكون بها تلقى العلم الوجدانى على سنن الصواب دائماً ، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس(١) إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن مايدعو إليه حق ، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكوا أن له فى التدبير العالى منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ؛ وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ، ولا يباشر معصية ، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيما ، وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطأوا والله أعلم(٢) .

## جديرون بالطاعة والاتباع

إن هذه الجماعة التى هذا شأنها فى العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله فى قالب من

---

(١) أى كونه مأمونا من الخطأ عند الناس؛ يكون لهذا صح عندهم أن ما يدعو إليه حق الخ

(٢) حجة الله البالغة « باب الحاجة إلى هداة السبل ومقيمى الملل » : ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .

الاعتدال والسداد ، ورباها فأحسن تربيتها ، وأدبها فأحسن تأديبها : «ولتصنع على عيني(١) » ، « أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار(٢) » هى الجديرة الخليقة — بحكم العقل والذوق والمنطق — بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتباع ، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر جماعة من أنبيائه المكرمين ، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين ، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده(٣) » .

## محط العناية والرضا

لقد أحاطت العناية الالهية والقبول الرحانى بنفوس الأنبياء ، والحياة التى كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة ، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التى تعودها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً وواديا وسلك الناس شعباً وواديا ، كان شعبهم وواديهم أحب إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفى كل ما أختاروه وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم

---

(١) طه : ٣٩

(٢) سورة ص: ٤٦ ، ٤٧

(٣) الأنعام ٩٠

وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم ، والتشبة بهم ، أقوى الأسباب وأقرب الطرق ، وأيسرها لجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم وتشبه بهم من المحبوبين ، فضلا عن أن يكون من المحبين ، لأن المتشبه بالحبيب حبيب ، وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلا من الأصول ، والقانون الذى لايتبدل ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم : « **قل ان كنتم تحبون الله فأتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** » (١) وبالعكس من ذلك ، كان الميل إلى الظالمين والكفار ، وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله ، والبعد عنه ، قال : « **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** (٢) »

## سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع ، وحقيقة الشعائر :

وهذا السر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة وسنن الهدى ، وتشيد بها وتحث على الأخذ بها ؛ وبمجموع هذه الأخلاق ، والعادات يحدث انصباغاً بصبغتهم ، وهى الصبغة التى يقول الله عنها : « **صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** (٣) » ؛ وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة

---

(١) آل عمران : ٣١ (٢) هود : ١١٣ (٣) البقرة : ١٣٨

وخلقاً على خلق ، ووضعا على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سر ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة ، وسنة موافقة للفطرة ، وضده علامة للانحراف ، وشعاراً لأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبه بهم ، والثاني شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم ؛ ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة والاختلاط ، وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين .

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى ؟ وخصت بالأعمال الفاضلة المستجادة ؟ كالأكل والشرب والإشارة وتناول شيء ذي بال وإعطائه ، وكل ما فيه إكرام ، وخصت اليسرى بالاستبراء وكل ما فيه لوث وإهانة ؟ وكلتا اليدين للإنسان وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه ؟ وكثير من الأمم الجاهلية وممن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب ، ويضع إحداهما موضع الأخرى ؟ لا سبب لذلك إلا أن الأنبياء عامة - ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة - كانوا يفعلون ذلك بإلهام من الله ، أو بسائق من فطرتهم السليمة التي كانت دائما على اتصال ، ومناسبة بما يرتضيه الله تعالى من الأخلاق والعادات والأوضاع ، ولماذا كان اليمن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ، ومن شعائر الحضارة الإسلامية ؟ ، لأنه كان من سنة الأنبياء عليهم السلام ،

ومن عادات الرسول صلى الله عليه وسلم وذوقه، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب التيمن ما استطاع فى شأنه كله ، فى طهوره وترجله وتنعله (١) .

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطهارة وخصال الفطرة التى نسبت فى الحديث إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

## مؤسسوا حضارة وأسلوب خاص من الحياة :

إن الأنبياء [illegible] الصلاة والسلام لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب ، ولم يحملوا دينا جديداً — هو الإسلام — فحسب ، بل كانوا مؤسسى حضارة ومدنية وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التى تسمى الحضارات الجاهلية ، امتيازاً فى الأساس وفى الروح وفى الأشكال والتفاصيل :

## حضارة إبراهيمية محمدية :

وكان إبراهيم الخليل الحنيف صلى الله عليه وسلم إمام هذه الحضارة الحنيفية، المؤسسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة

---

(١) صحيح البخارى

الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله ، والإنابة والرحمة على بنى النوع ، ورقة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه فى هذه المدنية ومنهج الحياة: « **إن إبراهيم لحليم أواه منيب**(١) » و « **إن إبراهيم لأواه حليم**(٢) » ، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها ، وهو الذى بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها ، وشد بنيانها ، وجعلها خالدة باقية ، عالمية .

## خصائص هذه الحضارة وسماتها :

« إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به فى لون من الألوان ، فى أى مكان وزمان ، فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر همه « **واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام** (٣) » وكان أكبر وصيته ودعوته للامم والأفراد جميعا: « **فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به** (٤) »

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات ، والتكالب على حطام الدنيا والتناحر على جيف المادة والتقاتل فى سبيل الحكومات والمناصب ، إنها دعوة لم تزل عقيدتها : « **تلك الدار الآخرة**

---

(١) هود : ٧٥ (٢) التوبة : ١١٤ .
(٣) سورة إبراهيم : ٣٥ (٤) الحج : ٣٠ ، ٣١

**نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين(١) »**

إنهـــا حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان . والتمييز بين الألوان والأوطان . فالنـاس كلهم من آدم وآدم من تراب . لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى : « **يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » (٢) وقد قال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم: « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية(٣) » وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين : « دعوها فإنها منتنة »(٤)

إنها حضارة تعرف فى العقيدة بالتوحيد ، وفى الاجتماع باحترام الإنسانيه والمساواة بين أفرادها ، وفى دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله ، والحياء والتواضع ، وفى ميدان الكفاح بالسعى للآخرة والجهاد لله ، وفى ساحة الحرب بالرحمـــة والعاطفة الإنسانية ، وفى أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، تعرف فى التاريخ بخدمة الانسانية المخلصة ، وإنقاذها من براثن الجاهلية ، والدعوات الطاغيـــة

---

(١) القصص : ٨٣
(٢) سورة الحجرات : ١٣
(٣) رواه أبو داود
(٤) رواه البخارى

وفى العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة الباقية .

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله وقامت على أساس الايمان،فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الايمانى(١)

## دعوة القرآن الى اتباع الأنبياء وحثه على تقليدهم :

إن القرآن يدعو إلى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم ، والسير على منهجهم العام فى الحياة ، والتشبه بهم ماأمكن فيقول : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا(٢)** » ،ويأمر المسلمين بأن يدعوا بقولهم: « **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » . ولاشك أن فى مقدمة هؤلاء المنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين ، وجعل هذا الدعاء فى صلب الصلاة ، وكلما كان الانسان اتبع لسننه ، وأكثر تخلقاً بأخلاقه وأشبه به هديا ودلا وسمتاً كان أقرب إلى الله ، وأعلى منزلة عنده .

## الاجلال المنبعث من أعماق القلب والحب العاطفى

والقرآن يطلب للأنبياء الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والتوقير والتبجيل العميق ، والحب العاطفى ، ولا يكتفى بالطاعة المجردة من كل

---

(١) رسالة «ملة إبراهيم وحضارة الاسلام» للمؤلف بتغيير يسير ص١٣ ، ١٤ ، ١٥
(٢) الأحزاب : ٢١

عاطفة وحب وإجلال ، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود وزعماء الأحزاب . ولا يكتفى بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام فقال : « **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه**(١) » ، وقال : « **فالذين آمنوا به وعزروه**(٢) » ، ولذلك أمر بكل مايحفظ لهم حرمتهم واحترامهم ، ونهى عن كل مايحط مكانتهم ويجرح كرامتهم ، ويهون شأنهم ، ويفقد مهابتهم ، فقال : « **يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم**(٣) » ، وقال : « **لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**(٤) » ، ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته ، فقال : « **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما** (٥) »

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حب الرسول وإيثاره على النفس والأهل والولد ؛ فقد جاء فى الصحيحين : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس

---

(١) الفتح : ٩
(٢) الأعراف : ١٥٧
(٣) الحجرات : ٢ ، ٣
(٤) النور : ٦٣
(٥) الأحزاب : ٥٣

أجمعين» ، وكذلك : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان . من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » الحديث .

## تأثير عاطفة الحب وسر تفانى الصحابة فى طاعة الرسول :

لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتخلق بأخلاق الرسول والانصباغ بصبغته وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذل المهجة والنفس والنفيس فى سبيل دعوته ، لا يتأتى إلا بهذا الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العميق الذى يملك على الإنسان مشاعره ، ويستولى على قلبه ، ولذلك قال: « قل إن **كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين**(١) » ولذلك كان الصحابة رضى الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم إليها وأنشطهم فيها ، وأصبرهم عليها ، ولهم فى ذلك القدح المعلى والنصيب الأوفر ، إلى يوم القيامه ، ومنهم أبو بكر الصديق الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم عليه وأحب إليه من نفسه ، وحياته ، وصحته أعز عليه من حياته وصحته ، وقد ضربه عتيبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنوتيم أبا بكر فى ثوب لا يشكون

---

(١) التوبة : ٢٤ .

فى موته ، ولما تكلم آخر النهار قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولما قيل له : إنه سالم صالح قال : إن لله على ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) .

ومنهم المرأة الأنصارية التى كان الناس يخبرونها بشهادة أعز أقاربها: أبيها وأخيها وزوجها يوم أحد ، فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟قالوا: خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين،فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل(٢) .

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أبى ، سمع أن والده قال :لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ اما والله لتعرفن العزة لك او لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظله ولا تأويه ابداً إلا بإذن من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى ارسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن يخلى سبيله(٣) .

ولذلك كله استطاعوا ان يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفهم

---

(١) البداية والنهاية : ج ٣ ص ٣٠

(٢) ابن اسحاق والبيهقى

(٣) تفسير الطبرى : ج ٢٨

وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الإخوان ، والشهادة فى سبيل الله ، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر : إن أمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك(١) .

## نتيجة ضعف عاطفة الحب فى العالم الإسلامى اليوم وتأثير ذلك فى الحياة

وما ضعف العالم الإسلامى فى العمل بالشريعة اليوم والتكاسل فى الطاعات ، والابتعاد عن كل ما يشق على النفس ، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسنن وهدى الرسول إلا لضعف هذا الاجلال الذى اهتم به القرآن كثيراً ، وضعف عاطفة الحب أو فقدانها ؛ العاطفة التى كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها ، ومرد عجائب ومعجزات فى التاريخ ، وهو فراغ لا يملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام ، وخسارة لا تعوض بشىء .

## الفلاح للأمة يبعث فيها النبى الا فى اتباعه وإيثاره

وإن مصير الأمم التى يبعث فيها هؤلاء الأنبيـــاء مربوط باتباعهم والانقياد لهم ، والاجتماع تحت رايتهم ، والتمسك بأهدابهم

(١) قاله سعد بن معاذ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

والسير فى ركابهم بعز عزيز وذل ذليل ، فلا تفلح أمة مهما أوتيت من الحول والطول والذكاء والوسائل . ومهما تقدم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع هذا النبي ، والحب له والانتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق ، معتمدة على سياستها الحكيمة ، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات القوية ، فلن يكون ذلك ، وليس عاقبتها إلا الذل والهوان والاخفاق الذريع ، والانشقاق الداخلى ، والخيبة عاجلا أو آجلا .

وضع العالم الإسلامى والعربى اليوم وسببه :

والعالم الإسلامى بصفة عامة ، والعالم العربى بصفة خاصة ، خير شاهد على ذلك ، فقد كبر على هذين العالمين فى الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمى صلى الله عليه وسلم وثقل عليهما إيثار ما أمر به وطلبه ، على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء ، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور فى مظهر دينه أمام الأمم والحكومات ، وآمنا بضرورة التنصل عن دينه وأحكامه وحضارته ، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية والوطنية والشيوعية والفلسفات الحديثة . وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدوا ، وهذا هو العالم العربى — ولا معذرة ولا استعفاء — موزع على نفسه ، لم يستطع أن يحل مشكلة

فلسطين فى هذه المدة الطويلة ، ولم يحتل المكان اللائق به فى زعامة العالم الإسلامى أو قيادة العالم الإنسانى ، وفى كل يوم مشكلة طريفة ، وقضية جديدة .

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ قال لأصحابه العرب فى الشام ، وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الإسلامى وقد عيروه ببعض صنيعه الذى لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة :

« إنكم كنتم أذل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله (١) »

---

(١) البداية والنهاية : ج ٧ ص ٦٠

# بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية

## تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية :

إن القارىء القرآن — وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم — يلاحظ باستمرار ووضوح، أن الأنبياء بعثوا دائماً فى بيئة مظلمة خانقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها، وبعثوا فى ضعف شديد وفقر تام فى الأسباب، وكان كل مايعتز به إنسان من مال وملك وشيع وأنصار والأسباب المادية فى جانب أعدائهم وفى كفتهم، وتحت تصرفهم، ولم يكن فى جانب الأنبياء وكفتهم إلا الإيمان القوى الذى لا يرقى إليه شك، والإخلاص الكامل الذى لا يشوبه طمع ونفاق، واعتماد على الله وابتهال إليه، واطراح على عتبة عبوديته والعمل الصالح، والتقوى، وحسن السيرة، والأخلاق الفاضله، زيادة إلى كل ذلك — زيادة لا يستهان بقيمتها — الدعوة الإيمانية الصحيحة التى تكفل الله بنصرها فقال: « **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد** (١) »، وقال: « **كتب الله لأغلبن أنا**

---

(١) غافر : ٥١

**« ورسلي ، ان الله قوى عزيز » (١)، وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون (٢) » .**

### شيء مقصود ومطرد مستمر :

ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات ، وتألب القوم عليها ، وتنمرهم لها ورميهم عن قوس واحدة ، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائما بين ضعيف فقير أعزل ، وبين جماعة غنية قوية قاهرة ، تملك جميع الأسباب ، أو ملك مستبد طاغية ، ثم النتيجة واحدة دائما ، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها ، على ضعفهم وفقرهم ، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم ، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها ، يبدو لقارىء القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات — وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق ، التي هي منطق الضعفاء الجهلاء — وأنه شيء مطرد مستمر ، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ولا تزال

---

(١) المجادلة : ٢١

(٢) الصافات : ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣

تملكها وتصرفها كيف تشاء وتشغلها متى تشاء ، وتعطلها متى تشاء ، وأنها لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخل عنها بعد أن ملكتها من أرادت ، وأنها ليست فى الخلق والإبداع والنصر والغلبة فى حاجة إلى الأسباب ، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء ، وبضعف الباطل وسخافته وتهيؤه للانكسار والاندحار : « **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** . (١) » « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون** . (٢) » « **فأما الزبد فيذهب جفاءا ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** . (٣) »

## تشجيع على التجربة واطماع فى رحمة الله

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره ، وإن اختلاف الزمان والمكان ، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح ، وإنا كفهر الجو وقسا الزمان ، وأن معجزات النصر وعجائب القدرة الإلهية تتكرر ، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين ، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم

---

(١) سورة سبأ : ٤٩

(٢) الأنبياء : ١٨

(٣) الرعد : ١٧

والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمعهم فى رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب : « **رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** (١) » ، ويقول عن يونس : « **فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين** (٢) » ، ويقول : « **سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزى المحسنين**(٣) » ، ويقول : « **سلام على إل ياسين ، إنا كذلك نجزى المحسنين**(٤) » ، ويقول بعد ما ذكر قصة لوط : « **نعمة من عندنا . كذلك نجزى من شكر** (٥) » ، ولذلك لم تكن هذه القصص التى تكون جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية ، إنما هى موعظة وذكرى وحث ، ودعوة وإرشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع : « **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** (٦) » ، « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** (٧) . »

سنة الله مع جميع أنبيائه :

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع أنبيائه . فنوح يقول له قومه :

---

(١) الأنبياء : ٨٤
(٢) الأنبياء : ٨٨
(٣) ص : ١٢٠ ، ١٢١
(٤) ص : ١٣٠ ، ١٣١
(٥) القمر : ٣٥
(٦) يوسف : ١١١ .
(٧) هود : ١٢٠

« **انؤمن لك واتبعك الأرذلون** (١) » ويقول مبتهلا إلى الله مستغيثا على ضعفه : « **انى مغلوب فانتصر** (٢) » ولوط يقــول لقومه: « **لو ان لى بكم قوة او آوى إلى ركن شديد** (٣) » ، وشعيب يقول له قومه: « **ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز** (٤) » وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى فى صراحة ووقاحة: « **ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى افلا تبصرون . ام انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا القى عليه اسورة من ذهب او جاء معه الملائكة مقترنين** (٥) .

أما أممهم التى بعثوا إليها فقد كانت ذات الطول أو الحول وذات العدة والعتاد، وذات الزروع والضروع، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه : **واتقوا الذى امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين. وجنات وعيون**(٦) وقول صالح لقومه: « **اتتركون فى ما ههنا آمنين، فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين**(٧) »، وقول شعيب لقومه: « **انى اراكم بخير**(٨) » ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ إقرأها

---

(١) الشعراء : ١١١
(٢) القمر : ١٠
(٣) هود : ٨٠
(٤) هود : ٩١
(٥) الزخرف : ٥١، ٥٢، ٥٣
(٦) الشعراء : ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤
(٧) الشعراء : ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
(٨) هود : ٨٤

مجموعة في قوله تعالى: « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين(١)

### اعظم تحد للمادية المسرفة وأكبر ثورة على عبادة الأسباب :

أما قصة إبراهيم المكررة في القرآن فهي أعظم تحد لتأثير الأسباب واستقلالها ، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها ، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها ، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مأمورا بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها ، المقدسين لها ، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها ، وكأنه — وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره — كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب ، وعدم الاحتفال بها ، والتغلب عليها بنصر الله ، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها ، وكأنه كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة ، أن يدوسها بقدمه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصارا جديدا للإيمان على الشك ، والروح على المادة ، والتوحيد على نظام الشرك ، وقد عاش طول حياته ثائرا على ما حوله من القوة

---

(١) الأنعام : ٦ .

والسلطان وعبادة المادة والمعدة . والآلهة الزائفة ، والقوى المخيفة .

والسر فى ذلك ، أن العالم فى عصر إبراهيم عليه السلام كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً ، واعتمد الناس عليها اعتمادا زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى ، غير الوثنية التى أغرقوا فيها ، وغلوا فى عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيتين ، ودعوة إلى التوحيد النقى الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شىء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم ، وأنه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات . وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء .

أشعل الناس له النيران وقالوا : « **حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** (١) » وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لاتنفك عنها ، إنما هى طبيعة مودعة أمانة فيها ، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحولها إلى برد وسلام ؛ فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان : « **قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** (٢) »

---

(١) الأنبياء : ٦٨ (٢) الأنبياء : ٦٩ ، ٧٠

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضى مخصبة تكثر فيها المياه ، ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعات ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة ، والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة - المكونة من أم وابن - وادياً غير ذى زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ، ويجبى إليهم الثمرات ، من غير سبب وطريق معروف فقال : « **ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**(١) »

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، جعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات : « **أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون**(٢) » ، « **فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**(٣) » تركهم فى أرض لا اثر فيها لماء يروى الغلة ، ويبل الحلقوم ، فاذا بماء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع ، يشربه الناس فى سخاء ويحملونه

---

(١) إبراهيم : ٣٧ (٢) القصص : ٥٧

(٣) سورة قريش : ٣ ، ٤

إلى بلادهم ، ويترك أهله فى بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكانا يؤمه الناس من كل صوب ، ويأتون إليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة إبراهيم : تحديا للمادية المسرفة الشائعة فى عصره وعبادة الأسباب ، واتخاذها أربابا من دون الله ، ومثالا للايمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن إرادته فوق كل شىء ؛ وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ، ويخلق له ما تحار فيه الألباب (١)

## تحدى قصة موسى للعقل المادى الضيق :

وتلى قصة إبراهيم قصة موسى فى تحديها الصارخ للعقل المادى الذى ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبعية لا سلطان عليها لأحد ، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها ، وجاءت محنة وبلاءاً للذين ضاق تفكيرهم وكلت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب ،

« يولد موسى فى مصر فى بيئة قاتمة خانقة ، قد انطبقت على بنى إسرائيل كل الانطباق ، وسدت فى وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضر شق ومستقبل مظلم ، قلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة نفوس ، وعدو

---

(١) للمؤلف فى مجلة « المسلمون » ص : ٨٠ ، ٨١ ، ٨١ العددان : ٧ ، ٨ سنة ١٣٨١ هـ

قاهر ، وسخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ولا دولة تحمى ، أمة مصيرها معلوم محتوم ، قد خلقت للشقاء والفناء (١) »

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش فى صندوق خشبي مسدود ، وفى ماء النيل الفائض ، وينشأ فى حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجد به الطلب القوى الساهر ، فيفلت وينجو ويأوى إلى ظل شجرة ، كئيباً غريبا فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتتمخض زوجه فيطلب لها نارا تصطلى بها ، فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ، ويهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد الإنسانية كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون فى أبهته وسلطانه ، وفى ملائه وأعوانه وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت إليه الدعوى ، وفى لسانه حبسة ، وفى موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التى ظنها فناً وسحراً ، فإذا بالسحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : « **آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون** (٢) »

---

(١) من مقال سابق للمؤلف يستعرض فيه قصة موسى فى القرآن وما فيها من عبرة وذكرى .

(٢) الشعراء : ٤٧ ، ٤٨ .

ويؤمر بالخروج ببنى إسرائيل ، والإسراء فى الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ، والبحر أمامه ، والعـــدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده ، فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء « **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**(١) .

## مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف

ولا تقل قصة يوسف فى الغرابة ومخالفتها المألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعى . خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب . فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم له ، والبقاء فى غيابت الجب مدة من الزمان ، والتقاط السيارة له ، والرق ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والإذلال والهوان . ولكنه يخرج من كل هذا سليما معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع فى امتحان شديد ، فى العفة والنزاهة والوفاء والشرف ، ويعتصم مع توفر الدواعى القوية والمغريات

---

(١) الأعراف : ١٣٧ ، منقولة من رسالة : « ثورة فى التفكير » للمؤلف .

القاهرة ، والإغراء — من شباب وجمال وطلب وإلحاح شديد من جانب ، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء — والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول فى السجن فى تهمة خلقية ، وفى عصر لم يكن السجن فيه إلا رمزاً للجريمة ، ولم يكن إلا مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحدوثة فى البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريباً عن مصر لا يتصل بها بجنسية ووطنية ، وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير ، وكان الاسرائيلى آخر من يفكر فيه لشرف أو حكومة فى مصر ، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره ، وإضعاف شأنه وإساءة شهرته ، وحرمانه من كل ثقة وتكريم ، وبعده عن كل مركز محترم ومكان مرموق فى المجتمع المصرى ، فضلا عن إمارة وسيادة ، فضلا عن تقليد منصب جليل ، لا يحظى به إلا السيد الكريم ، الحفيظ العليم ، وفضلا عن أن يكون سيد مصر المطاع يأمر وينهى ويرجى ويخشى ، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ، ويتربع يوسف على أريكة مصر ، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها

**« وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيع اجر المحسنين (١) »**

---

(١) يوسف ٥٦

## مماثلة بين قصة يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم

إن آخر الرسل صلى الله عليه وسلم، ومن آمن به ووضع يده في يده من أفراد قريش ، كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة ، ومثل هذه المشكلات : قلة عدد ، وضعف شأن ، وفقد أسباب ، وخذلان من العشيرة ، ومحاربة شديدة من القوم ، ومقاطعة وتطويق ، وإحصار وتضييق ، وصد عن سبيل الله ، وتعذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم: « الصابئين » و« السفهاء » وتآمر على قتل الرسول ؛ ذعر دائم، وخوف قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره : « **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس**(١) »

### تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم :

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملا ، ولا تبشر بمستقبل ، ولا يرى فيها وميض من النور ، قص الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته صلى الله عليه وسلم من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته ؛ حسد ومحاربة في البداية ، واعتراف وإجلال وندم في النهاية ، وإبعاد وإقصاء ونكران وجفاء في الأول ، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر ، وغيابت الجب في محنة يوسف. وغار ثور في رحلة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسجن في قصة سيدنا يوسف وشعب أبي طالب في قصة سيدنا محمد ، وتقرير وإعلان من أعداء

(١) الأنفال : ٢٦

كل واحد منهما : « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين(١) » والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين : «لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين(٢) » وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله : « نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين(٣) » ، وختمها بقوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون(٤) » .

وهكذا نزلت هذه السورة فى جو مكة الثقيل المظلم ، ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكأن قصة يوسف قصته ، ولم تزل الكناية — فى الجو المعادى الرهيب — أبلغ من التصريح دائماً .

انتصار مقرون بانتصار الأمة :

ثم قص الله عليه صلى الله عليه وسلم قصة موسى مع فرعون وملائه، القصة التى قصها فى سورة القصص ، وهى قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده، وتشرفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة — وهو لا يطمع إلا فى نار يصطلى بها وتتدفأ بها زوجه — وهلاك العدو ونجاة بنى إسرائيل ، وهى قصة كقصة يوسف مع زيادة أنها مقرونة بنجاة بنى

---

١ — يوسف : ٩١
٢ — يوسف : ٩٢
٣ — يوسف : ٣
٤ — يوسف : ١٠١

إسرائيل وفوزهم وسيادتهم ، وقد افتتح هذه القصة بمقدمة مجاجلة عظيمة، كانت جديرة بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش وتملأها هيبة وإشفاقاً من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة ، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً ، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً، فقال: «طسم ، **تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الارض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** »(١)

مصدر القوة والثقة والأمل، للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تسلية وتقوية لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال: « **وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين**(٢)» بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الوطيد ، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء ، ويقومون بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله ، ويصبرون على الأذى ويثابرون على الجهاد . ويرابطون في سبيل

---

(١) القصص : ١ الى ٦ (٢) هود : ٢٠

الله، وقد قال الله تعالى فى قصة موسى : « **وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**(١) » ،وقال يوسف مجيباً معللا لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة: « **قال انا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع اجر المحسنين**(٢) » ، وليعلموا أن هذه سنة الله التى لا تتخلف ، وأن الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء والإيمان والعمل الصالح والطاعة ، والصبر والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوى ، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين**(٣) » ، « **ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين**(٤) »

ولم تكن هـــذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيمانى القوى ، وإلا إذا كانت دليلا على أن دعوة الأنبياء هى التى يكتب لها الانتصار والازدهار ، وأن الصفات والسيرة والأخلاق التى يرضاها الله هى التى يقدر لها الفوز والفلاح ، مهما عارضتها الأسباب وتألفت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء ، ومهما ضعف أصحاب هـذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية مادياً : « **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم راى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار**(٥)

---

(١) الأعراف : ١٣٧
(٢) يوسف : ٩٠
(٣) البقرة : ٢٤٩
(٤) آل عمران: ١٣٩
(٥) آل عمران : ١٣

## إما الإيمان بدعوة الأنبياء ، وإما الهلاك والدمار

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه ، في إجمال تارة وفي تفصيل أخرى ، وذكرها مراراً وتكراراً ، تجمع بينها نقطة لا تختلف ، وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم ؛ إما بإيمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها ؛ وإما بهلاكهم ودمارهم : « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين**(١)

## لا قيمة للمصالح الفردية والقومية

وهـــذه منزلة هذه الدعوة عند الله ، التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية ونجاتها ، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة وكثيراً من القوانين الطبيعية ويحدث مالا يخطر على بال ، أما المصالح الفردية أو القومية أو حب العلو والسيادة والطموح والكبرياء ، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً ، ولا تهدم شراً ، وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشر ولا مع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هـــذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها ، وفي ولايتها وحضانتها ، وأن يعود نفعها إليها ، فلا قيمة لها عند الله ، ولا تعدل عنده جناح بعوضة ، ولا يبالي الله في أي واد هلكت ، وأي عدو تسلط عليها ، ومتى يفاجئها

---

(١) الأنعام : ٤٥

الموت ، أو ثورة عارمة جبارة لا ترحم ولا ترثى ، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر .

### التفكير الخاطئ السائد

إن التفكير السائد مع الأسف اليوم فى الشعوب الإسلامية ، وفى أنحاء العالم الإسلامى ، والمنطق المقبول الذى خضعت له جميع الطبقات وآمنت به إيماناً راسخاً ، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق ، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين — وحتى دعاة الدين — وهتافهم : «المادة قبل كل شىء» وهذا المبدأ هو الذى تنقضه وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث ، وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات ، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم .

وفى رسالتى « ثورة فى التفكير » قلت : « منذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا فى خارطة العالم بهذه « الطاقات » و « الإمكانيات » وما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحة فى إقليم ، طائشة فى آخر ، راجحة فى حين ، طائشة فى حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر ، وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول والتطور

وتجدد المثل القديم ، وأصبح عقيدة شائعة : « إذا قيل لك : إن التتر انهزموا فلا تصدق » .

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، وإذا فكرنا في ذلك — على حين غفلة من العلوم والدراسة والعقل والكياسة — استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا ، وسمعنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع . والعيش على هامش الحياة وعيالا على الغرب ، مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين(١) » .

## سلاح المؤمن ومفتاح النجاح : الإيمان والطاعة

ولكن ما قص الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن ، وما ورد فيه من أمثلة رائعة تعارض هذا التفكير على الخط المستقيم ، وتبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم ، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة ، وتبوأت الإمامة والزعامة في العالم ، هو : « الإيمـــان » و « الطاعة » و « الدعوة إلى الله » : « **وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون(٢)** » ، « **واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (٣)** » ، « **يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم**

---

(١) ثورة في التفكير : ص ٢٠٢ (٢) السجدة : ٢٤

(٣) يونس : ٨٧

ويثبت اقدامكم(١) » « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم ، وانتم الأعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم(٢)

## لا مستقبل للامة الاسلامية الا فى طريق الأنبياء

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة وهذا هو الدرس الحكيم الذى تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ، وهذا هو المنهج الرشيد الذى سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسجله عليهم القرآن ، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا فى هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم التى تؤمن بالمبادىء وتحتضن الدعوات إلا فى هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) سورة محمد : ٧　　　(٢) محمد : ٣٥

# خاتم النبيين

## نكبة العصر الجاهلي

لم تكن نكبة الجاهلية — ذلك العصر الذى أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده — انتشار الكفر والفجور ، والمعاصى والآثام ، والظلم والطغيان ، وإهدار كرامة الإنسان والاعتداء على حقوقه ، وتغلب الحكومات الجائرة والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلة عدد الصالحين العابدين لله وضعفهم — وكل ذلك مايؤسف له — ولكنه وقع مراراً فى تاريخ الإنسانية الطويل ، وعالجه رجال الإصلاح والدعوة وأهل الضمائر الحية والعزائم القوية فى عصورهم .

ولكن نكبة الجاهلية ، التى جاءت لإزالتها والتغلب عليها البعثة المحمدية ، التى اختارها الله لمعالجة أعظم نكبة ونكسة للإنسانية ، هى فقدان العلم الصحيح من العالم ، والإرادة الخيرة ، وفقدان الجماعة التى تنتصر للحق، وتحارب الباطل ، وتصارع الشر، وتبنى عالماً جديداً .

## فقدان العلم الصحيح

لقد فقد العلم الصحيح الذى يعرف به الإنسان ربه معرفة صحيحة

ويصل به إلى خالقه ، ويعبده به عبادة خالصة مرضية ، حتى إذا وجدت الإرادة الصحيحة القوية والطلب الصادق لم ينتفع به صاحبه ، وكل علم وجد فى هذا العصر مشوب بالجهل مزوج بالخرافة ، محرف عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه .

### فقدان الإرادة الخيرة القوية

وإذا وجد هـذا العلم الصحيح على ندورته فى صدر من صدور العلماء . أو فى كتاب من كتب الحكماء ، أو كأثارة من علم نزل قديماً من السماء . لم وجد الإرادة الخيرة القوية التى تلتقطه من مكانه ، وتعض عليه بالنواجذ ، وتتغلب به على شهوات نفسه ومعارضة بيئته ، فقد فقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلت العزائم والقوى فى هذا الطلب ، وانصرفت إلى طلب المعاش وإرضاء الشهوات وتحقيق مطالب النفس ، وطاعة السلاطين العمياء ، والاستماتة فى سبلهم ، وانطفأت جذوة الحب ، وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقى من مظاهر الدين فإما وثنية خرافية ، وإما تقاليد سطحية .

### فقدان الجماعة التى تنتصر للحق

وإذا وجد العلم الصحيح والإرادة الخيرة لم توجد الجماعة التى يلتجئان إليها فى الشدة ، ويستمدان منها القوة عند الضعف ، فضاعا فى جهود فردية ، وإصلاحات شخصية ، وكان هـؤلاء الأفراد

ـ الملتجئون إلى الكنائس والأديار ، أو المغارات وقلل الجبال ـ مصابيح احترقت ذبالتها ، ونفذ زيتها ، وخفت نورها ، أو كيراعات تطير فى ليلة شاتية مطيرة مظلمة ، لا يهتدى بها المسافر التائه . ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

## الحاجة إلى طلوع شمس جديدة :

أما العلم الصحيح الذى يهدى الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة به ، وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدة قوية ، ويملأ العقول يقيناً جديداً ، والقلوب حباً شديداً ، وينفى تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الشك إلى اليقين ، فلم يكن إلا علماً محفوظاً غضاً طرياً منزلا من السماء حديث عهد بربه . وكانت النبوة الجديدة وحدها هى التى تستطيع ـ بإذن الله ـ أن تغير هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلها ، ويردع أهل الشرك والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس من تحريفهم وجهالتهم ، ويعترفون هم جميعاً ـ إذا انصفوا وخافوا الله ـ بأن النجوم قد أفلت ، وأن شمساً جديدة قد طلعت ، وأن الصباح قد أغنى عن المصباح : « **لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة** (١) »

---

(١) سورة البينة : ١ ، ٢ ، ٣

## تعاون الفلسفة والوثنية على إضعاف الإيمان وإضلال الإنسان :

وكانت الارادة الخيرة القوية خاضعة دائماً للعلم الصحيح والايمان القوى ، فاذا آمن الإنسان بحقائق وآمن بمضار ومنافع وخاف ورجا ، ورغب ورهب تبعت ذلك إرادته وطاوعته أعضاؤه ، واستجابت له قواه ، ولكن فقد الإيمان القوى فى العصر الجاهلى ، وشك الإنسان فى وجود الله وفى وجود الآخرة وفى وجود الجنة والنار ، وفى نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشرك على إضعاف هذا الإيمان وإضعاف رابطة العبد وربه ، أما الأولى فبالإلحاح الشديد على نفى الصفات ، وأما الثانى فبصرف هـــذه الصفات إلى المخلوقات، فمن آمن بالأولى لم ير حاجة للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق الذى تجرد عن كل صفة وعن كل قدرة ، وعن الرحمة والمحبة ، ومن آمن بالثانى تشاغل بالمخلوقات والالتجاء إليها ، ولم ير حاجة أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى رب لا يرى بالأبصار ، قد تنازل لكثير من خلقه فى أمور العباد .

وهكذا توزع العالم فى معسكرين : معسكر لا يجد فى نفسه اندفاعاً وداعية للالتجاء والدعاء والسعى للآخرة ، ومعسكر لا يجد فرصة للسؤال من رب الأرباب ، ووجـــد كليهما مرتعاً خصيباً فى العصر الجاهلى ؛ وهكذا ضاعت الإنابة المودعة فى فطرة الإنسان ، وضاعت شرارة الحب والطلب المودعة فى قلب الإنسان ، وضاعت القوى الغنية المودعة فى أعضاء الإنسان ، فى جحود وخمود ، وفى وثنية وخرافة ، وفى

عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف العالم الإنسانى كله من الشرق إلى الغرب على عبادة أصنام وآلهة قد تخيلها أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثل عليا فى الحياة قد اخترعها وفرضها على نفسه ، وحق عليهم كلهم قول إبراهيم : «**أتعبدون ما تنحتون**(١) » ؟ !

## لا يغير الوضع الجاهلي إلا الإيمان النبوي القوي العالمي :

ولم يكن لغير نبي مؤيد من الله، صاحب قوة قدسية، وشخصية نبوية أن يعيد هذا الايمان الضائع ، المفقود من قرون متطاولة إلى قلب الانسان، ويشغله بطلب جديد وحب جديد ، ويصرف إرادته القوية من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وإرضاء السلاطين الأقوياء الأغنياء، إلى طلب الله تعالى الذى لا تدركه الأبصار ، وإفناء قواه فى مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس فى سبيله، إيمانا بموعوده ،وطمعاً فى ثواب الآخرة ، إنه يحتاج إلى إرادة لا تثنيها الجبال ، ولا توهنها معارضة الجن والإنس : « لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه(٢) » إرادة اقتضتها الرحمة الإلهية بالإنسان ، فلابد ان تقوى وتستحكم ، ولا بد أن تتحقق وتتم ، إنه يحتاج إلى إيمان لو وزع على العالم كله وعلى الانسانية كلها لوسعها ،

---

(١) الصافات : ٩٥

(٢) من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٤٣

وبدّل شكه يقيناً ، وضعفه قوة ؛ إيمان كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن وتزيغ فيها الأبصار . وقد قام الأعداء الألداء على وجه الغار، فيقول له: « **لا تحزن ان الله معنا**(١) » . وكان يرى من أمد بعيد وفي ظلام شديد ، في يد سراقة الفقير البدوي ، سواري كسرى إمبراطور فارس ، وكان يرى في جوع قد مس ، وحصار قد طال ، في شرارة صخرة الخندق التي كسرها ، القصر الأبيض لقيصر الامبراطور الثاني ؛ إنه لا يمكن تغيير هـذا الوضع الجاهلي العالمي وإعادة الحياة واليقين والحماسة الدينية إليه إلا بهذا الإيمان القوي النبوي ، وإلا بهذه الإرادة الإلهية للإنسان بالخير : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** (٢) » ، « **هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** (٣) » .

الحاجة إلى أمة تبعث للإصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظم وأوسع من أن يتداركه أفراد منتشرون ومصلحون موزعون ، أو عصابة قوية أو مؤسسة غنية ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، وطم الوادي على القرى ، إنما كان ذلك عمل أمة تبعث وتتصل وتشمر وتكافح وتناضل وتنتشر في أرض الله ، وتتحدى الباطل أينما كان ، وتجتث الشر أينما وجد ، وتملأ أرض الله قسطاً وعدلا ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، وكان العالم في حاجة إلى بعثة نبي من أعظم الأنبياء ، مقرونة ببعثة أمة من أقوى الأمم . وهكذا كان :

---

(١) سورة التوبة : ٤٠ (٢) الجمعة : ٢ (٣) الصف : ٩

« كنتم خير امة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله(١) » .

لقد جاءت البعثة المحمدية في أوانها ، وفي شدة حاجة الإنسانية إليها:

« وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير(٢) »

تأثير البعثة المحمدية :

« وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة — التى كانت تسمى النسل الإنسانى — يدب فيها دبيب الحياة . وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التى قد عششت عليها . وباضت وفرخت ، وهى تحسب أنها ميتة لا حراك بها ، وإذا بيوت العناكب تتفتت و تتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات فى لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى ، وخمود نار المجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المبانى المجصصة ، والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض ، فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر وما بناه فراعنة العصر ، ببعثة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وطلوع فجر السعادة والعدل فى العالم(٣) » .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) الحج : ٥ ، ٦

(٣) معقل الإنسانية للمؤلف : ص ٣٠٢

## مولد عالم جديد .

لم يكن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثته مولد نبي فحسب ، أو مولد أمة فحسب ، أو مولد عصر فحسب ، إنما كان مولد عالم جديد بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم وتغلغلت في أحشائه ، وخضع لها هذا العالم في عقيدته وفي أسلوب تفكيره ، وفي مدنيته — وفي أخلاقه واجتماعه ، وفي علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنها — ولو جرد منها لحرم أغنى ثروة يملكها ، وأعظم قوة يعتز بها ، ولانتكص على أعقابه ، ورجع إلى الوراء — وهو يدين له في حياته ، لأن بعثته صلى الله عليه وسلم هي التي منحته حق الحياة ومدت في أجله ، وغلبت قوى الخير على قوى الشر ، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه ، ولعنة الله التي حقت عليه ، والشؤم الذي أظله ، وكان جديراً ـ قبل بعثته ـ بأن يطوى بساطه وينقض أساسه : « **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون**(١) » إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب(٢) .

## تصوير للعصر الجاهلي

وماذا رأى في الأرض — وهو العليم الخبير — لم ير إلا ساجداً لوثن ، أو عابداً لبطن وخاضعاً لسلطان ، أو مطيعاً لشيطان ، أما الدين الخالص ، أما الطالب الصادق ، أما العلم الصحيح والعمل الصالح ،

(١) سورة الروم : ٤١ (٢) حديث شريف

أما الإخبات إلى الله ، والسعى للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر ، وأغرب من العنقاء المغرب ، وصدق شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى إذ قال : ولم أر تصويراً أدق للجاهلية منه .

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة ، وخاضوا فى لذة الدنيا ، ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمقوا فى مرافق المعيشة ، وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن(١) وحمام وبساتين ولا يكون له دواب فارهة . وغلمان حسان ولا يكون له توسع فى المطاعم وتجمل فى الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم . وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع ، وتولد من ذلك داء عضال — دخل فى جميع أعضاء المدينة — وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه. وأهاجت عليه غموما وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة . ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم . فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن

---

(١) فسقية

أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر، يستعمل فى النضح و الدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها فى الحاجات ، ثم لا تترك ساعة من العناء ، حتى صاروا لا يرفعون رءوسهم إلى السعادة الأخروية أصلا ، ولا يستطيعون ذلك . وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دنيه(١)

### اتجاه عالمي جديد

وقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبته رأساً على عقب، فاكتسحت العالم المتمدن كله موجة قوية من الإيمان والطلب لله ، والجهاد فى سبيله، والسعي للآخرة ، وإدالة الإنسانية من أعدائها ، وإنهاض الأمم من كبوتها وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، واتجهت إلى هذه الغاية همم أهل العزائم وكفاية أهل المواهب ، وذكاء الأذكياء ، وسليقة الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء . وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر فى هذا العالم الذى لم يكن يعرف غير ضرب واحد وغير طراز واحد من الإنسانية، وهو عابد النفس وأسير الشهوة وصريع الهوى ، كثر فى هذا العالم فى كل عصر وفى كل بقعة عباد مخلصون ، وعلماء ربانيون ، وحكام عادلون ، وملوك زاهدون ، وأبطال مجاهدون ، لا يحصيهم كثرة من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء ، يباهي بهم الله الملائكة ، ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً ،

---

(١) حجة الله البالغة ( باب اقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم )

والأعداء مقنعى رؤسهم، وانتشر العلم الصحيح النافع، والعمل الفاضل الصالح ، والادارة الخيرة القوية ، والجماعة المؤمنة المجاهدة ، التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد فى سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، واتصل تاريخ الاصلاح والجهاد والدعوة والارشاد لاتتخلله فترة : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون (١) » .

### الأمة المحمدية معجزة الرسول :

وقد أحسن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير البعثة المحمدية وفضلها وإنتاجها فى كتابه : « الجواب الصحيح » يقول رحمه الله :

« وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ؛ وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ؛ وكرامات صالحى أمته من آياته » . .

ولم يزل قائماً بأمرالله على أكمل طريقة وأتمها ، من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة . وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة . وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب

---

(١) صحيح البخارى : ج ٢ ص١٠٨٧ .

التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معادا، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى إن النصارى لما رأوهم من حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء؛ وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض، وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهادا وأشجع قلوبا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم؛ تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم؛ وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور، وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده، كالحواريين ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم، حتى أدخلوا — لما غيروا دين المسيح — في دين المسيح أمورا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرأون كتابا،

بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود ، والتوراة والانجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء،ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل،فقال تعالى فى الكتاب الذى جاء به : « **قولوا آمنا بالله ....الى قوله ... وهو السميع العليم** (١) »

(١) البقرة ١٣٦ ، ١٣٧ — ملتقط من « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

# خيرأمة أخرجت للناس

## أهمية الإنسان

إن مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان ، وفيه سر سعادته وشقائه ، فاذا وجد الإنسان الحقيقى وفقد كل مايعتز به هذا العالم من ثروة وزينة وجمال ، لم يكن رزءاً كبيراً أو خسارة فادحة ، وكان وجود الإنسان الحقيقى خلفاً لكل فائت ، وعوضاً عن كل مفقود ، وسداً لكل عوز ، وأعاد الإنسان إلى العالم بنشاطه وحيويته وإنتاجه وعزيمته كل ما فقده هذا العالم ، أجمل وأكمل ، وأكثر وأوفر ، وإذا خير هذا العالم أو من يهمه أمره بين الإنسان من غير شىء وبين كل شىء من غير الإنسان ، واستعمل عقله وما وهبه الله من قوة الرشد والتمييز لكانت خيرته « الإنسان » من غير شك ومن غير تردد ، فالإنسان هو الذى خلق له هذا العالم ، وبسببه نال هذه القيمة والشرف .

ليس شقاء هذا العالم فى فقد الآلات والوسائل ، إن شقاءه فى سوء استعمالها ، وفى وضعها فى غير محلها ، إن سبب كل نكبة نكب بها هذا العالم فى تاريخه الطويل الملىء بالأحداث ، هو ضلال الإنسان وانحرافه

عن الجادة المستقيمة ، وعن فطرته السليمة ، أما القوى والوسائل فلم تكن إلا آلات صماء بريئة في يده ، تمتثل أمره وتنفذ رغباته ، وإذا كانت لها جناية فهي أنها ضمت إلى هذه النكبة سرعة في الوصول والانتشار ، وسعة في المساحة والامتداد .

## أسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها

إن هذا الكون الواسع ملىء بالأسرار ملىء بالعجائب ، وإن جماله ليبهر الألباب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها وكنوزها ودفائنها ، وإلى سعة القلب الانسانى وبعد أغواره ، وإلى سمو الفكر الإنسانى وسعة آفاقه ، وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها ، إلى آماله البعيدة التى لا تكاد تنتهى ، وإلى طموحه الذى لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح واللذات والخيرات والمسرات ، والملك والسيادة ، والنعيم والسعادة ، وإلى مواهبه المتنوعة المتناقضة ، الواسعة الكثيرة التى لا تعد ولا تحد ، كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر ، أو ذرة من صحراء ، وغاب فى سعة القلب الانسانى وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة فى البحار العميقة الزاخرة ، إن الجبال تتضاءل أمام إيمانه الوائق الراسخ ، وإن النار لتنطفىء وتحقر نفسها أمام حبه الولوع الوهاج ، وإن البحار لتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الإنسان خشية لله ، أو رحمة على ضعيف ، أو ندامة على تفريط ، إن الإنسان إذا تجلى جمال سيرته وحسن خلقه ورقة عاطفته أزرى بكل جمال فى هذا العالم ، وبهر كل حسن فى هذا الكون ، إنه واسطة العقد وبيت القصيد ، وأعظم آية من آيات

الخلاق المبدع الحكيم ، الذى خلقه فى أجمل صورة وأكمل سيرة وأحسن تقويم .

## الإنسان فوق كل مساومة وتقويم

إن العالم بما فيه من خزائن وكنوز ، وثروات وحكومات ، لا يستطيع أن يقوّم عقيدة الإنسان التى لا تعرف الشك والضعف . والحب الذى لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذى لا يعرف الفوارق والحدود ، والإخلاص الذى لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التى لا تعرف المساومة وجزاء الشر بالشر ، والخدمة المخلصة التى لاتريد جزاءاً ولا شكوراً ، إن الإنسان إذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته . وإذا اتسع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها ضاق هذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً لاهواء فيه ولا نور ، إنه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تكتنه حقيقته ، ولا تنفد عجائبه ، علمه وحلمه ، وكرمه ونبله ، ومحبته ورحمته ، وعطفه وإحسانه ، ورقة شعوره ودقة إحساسه ، وإيثاره وزهده واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفانى فى سبيل مرضاته ، وفى سعادة بنى نوعه ، وتلقيه لكل علم دقيق عميق ، ولكل علم مفيد جديد ، كل ذلك مما تحار فيه الألباب ويقصر عنه ذكاء الأذكياء .

إن وجود هذا الإنسان مفتاح كل سعادة وخير ، وحل كل أزمة ومشكلة . وإن تقويمه إذا زاغ وتهذيبه إذا فسد ، وتكثيره إذا عز وندر ، وإعادته إذا ضاع وفقد ، موضوع كل نبوة ، ومهمة كل نبي في عصره ، وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة وبهذا الانتشار وفي صورة أتم لم يسمع بمثلها في التاريخ ولم تقع عليها عين السماء ولم تطلع عليها الشمس ، وإن انخراطهم في سلك واحد ، واجتماعهم في شمل واحد ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحد ، وهدف واحد ، مأثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الإنسان من مستوى لم يبدأ نبي أو مصلح عمله منه ، ولم يكلف به ، لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبي إليه ، بدأ من مستوى تنتهي هنالك الحيوانية وتبتدىء منه الإنسانية ، وبلغ به إلى مستوى هو منتهى الإنسانية ، ولا منزلة فوقه إلا النبوة . وقد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

## واقع أجمل من الخيال والشعر :

إن كل فرد من هؤلاء الأفراد معجزة مستقلة ، وآية من آيات النبوة ،

ومأثرة من مآثرها الخالدة ، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الإنسانى ، إن مصوراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخية صورة أجمل وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد فى عالم الحقيقة والواقع ، وفى شهادة التاريخ ، وإن شاعراً لم يتخيل بخياله الخصب وقريحته الفياضة ومقدرته الشعرية ، أوصافاً أجمل ، وسيرة أعطر ، وجمالاً أكمل ، مما وجد فى هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم فى صعيد واحد فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع فى حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشأوا فى حجرة النبوة وحضانتها وتخرجوا فى مدرستها ، إن إيمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة ، وعن كل رياء ونفاق ، وتجردهم من الانانية ، وخشيتهم لله وعفتهم ونزاهتهم وعطفهم على الإنسان ، ورقة مشاعرهم وشجاعتهم وجلادتهم وحرصهم على العبادة . وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم ، وفتوتهم ، وإحياؤهم الليل ، وزهدهم فى حطام الدنيا وزخارف الحياة ، وعدلهم وسهرهم على مصالح الرعية وإيثار راحتها على راحتهم ، كل ذلك لا يوجد له نظير فى الأمم ولا سوالف فى التاريخ .

## الفرد الصالح فى مختلف مظاهره ومجالات الحياة

« أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة ، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية . يؤمن بأن الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة ، فاذا كان هذا الفرد تاجراً

فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً فهو الغنى السخى المواسى ، وإذا كان قاضياً فهو القاضى العادل الفهم ، وإذا كان والياً فهو الوالى المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوى الأمين . وإذا كان أمينا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم .

## اللبنات التى قام عليها المجتمع الاسلامى

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الاسلامى ، وتأسست الحكومة الاسلامية فى دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أمينا مؤثرا للآخرة على الدنيا ، متغلبا على المادة غير محكوم لها ، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغنى ومواساته ، وعدل القاضى وحكمته ، وإخلاص الوالى وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة . كلها إيمان وعمل صالح . وصدق وإخلاص ، وجد واجتهاد ، وعدل فى الأخذ والعطاء ، وإنصاف مع النفس والغير(١) .

---

(١) رسالة من غار حراء للمؤلف

## نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب

إن هذا الفرد قد نجح فى كل اختبار ومحنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس وبرز فيها ، كالإبريز الخالص ، والتبر المسبوك ، لاغش فيه ولا زيف ، وأبرز فى كل موقف دقيق محرج ،من قوة الإيمان ، وقوة الإرادة وقوة النفس ، وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ومن دقة الشعور بالمسؤلية ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والايثار ، مالم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جربوا الإنسان وكتبوا تاريخه فى العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدق هـــذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذى ليس مسئولا أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمة أو لجنة ، يزهد فيما أبيح له وفى خاصة ماله ، وفى النزر اليسير التافه الذى أباحتـه الشريعة وجرى به العرف ، واستهان به النـاس فى كل زمان .

## زهد الولاة وتقشفهم فى الحياة

ومن أروع الأمثلة لذلك أن امرأة أبى بكر الصـــديق خليفة المسلمين اشتهت حلواً واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ماتشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته كل يوم

ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم وتتوسع به في المطاعم .

وهنا تصوير أمين لموكب الخلافة ، وحكاية رحلة رسمية في مصلحة حكومية لحاكم من أقوى الحكام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكة ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ويزجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ويصورها بقلمه البليغ :

« قدم عمر بن الخطاب الجابيـة على طريق إيليا على جمـل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل ، بلا ركاب ، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفـــاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل . وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً ، فأتي بقميص كتان فقال: ما هذا ؟ قالوا : كتان ، قال وما الكتان ؟ فأخبروه ،فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب لغير الله بديلا ، فأتي ببرذون فطرح عليه قطيفته بلا سرج

ولا رحل ، فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأتى بجمله فركبه (١).

وروى الطبرى قال : « خرج عمر وخلف علياً رضى الله عنهما على المدينة ، وخرج معه بالصحابة وأغذوا السير واتخذ ابلة — على ساحل البحر الأحمر — طريقاً ، حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق ، واتبعه غلامه ، فنزل فبال، ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا : أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم ! ( يعنى نفسه ) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو إلى ابلة ، فنزلها وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين أبلة ونزلها ، فرجعوا إليه(٢) » .

## نموذج إنسانى رائع

إن هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهد وتواضع ، وإيثار وعطف ومواساة ، وشجاعة وعدل ، وحكمة وصدق ، منتشرة فى وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لو جمعها مؤرخ أو أديب أو عالم من علماء النفس والأخلاق ، وكون منها شخصية واحدة أو صورة موحدة لكانت من أسمى السير البشرية ومن أجمل الصور الإنسانية فى المصور الإنسانى الكبير ، وفى المعرض

---

(١) البداية والنهاية : ج ٧ ص ٥٩ ، ٦٠

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

البشرى التاريخى العالمى ، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملا شاملا وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفريدة التى أبرزتها للعالم تربية الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته ، فإننا نجد وصفاً لبعض الشخصيات يتسم بالبلاغة وحسن التصوير ودقة التعبير ، وقد عرف العرب قديماً بإجادة الوصف ، وبلاغة التصوير ، وصدق التعبير ، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ، ومدى نجاحها وإبداعها ، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذى ظهرت فيه معجزة الرسول فى أروع مظاهرها . وهى صفة على بن أبى طالب ابن عم الرسول ورابع الخلفاء الراشدين ، الذى نشأ فى بيت الرسول وفى حضانته وتربيته . وهى قطعة تستحق أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً وتعبيراً وتصويراً ، قال ضرار بن ضمرة وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن يصف له على بن أبى طالب الذى صحبه طويلا وعرفه من قرب فقال :

« والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا . يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة ولا نبتديه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس

الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين وكأنى أسمعه وهو يقول :

يادنيا ! أبى تعرضت أم لى تشوفت ؟ هيهات هيهات ! غرى غيرى قد باينتك ثلاثاً لارجعة فيك ! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق(١) !

## الجيل الإسلامى الأول

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذى أنشأته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأحكمته تربيته من أفضل الأجيال البشرية فى تاريخ الإنسان كله ، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الانسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ببلاغة نادرة ، وكلمات موجزة عميقة دقيقة ، زاخرة بالمعانى الكبيرة البعيدة المدى ، فقال : « أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإعزاز دينه(٢) » .

وإذا قورن هذا الجيل بجيل آخر رجح عليه فى المجموع وكانت مآخذه - ومما لا يخلوا منه بشر - ضئيلا فى جنب محاسنه ومظاهره

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى .
(٢) رواه الدارى فى مسنده

العظيمة البشرية ، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ودقيقاً في قوله :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة ، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلا من كثير ، وإذا قيس ما يوجد في الأمه إلى ما يوجد في سائر الامم كان قليلا من كثير ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض وهذا من الجهل والظلم(١) »

## تأثير الرسالة المحمدية في الأجيال المتأخرة

ولم يكن تأثير دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليماته وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلت ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال ، قاصراً على العهد الذي بعث فيه. والجيل الذي أدركه وسعد بصحبته ، إنما كان كالشمس التي توزع في نورها وحرها الزروع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالي ، فينتفع بها القاصي والداني ، لأن دعوته

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٢٣٤

إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله والخوف من سخطه وعقابه ، والطمع فى أجره وثوابه ، والاشفاق من النار ، والحنين إلى الجنة ، وسيرته صلى الله عليه وسلم فى الزهد فى حطام الدنيا والرغبة فى الآخرة ، والشظف فى العيش ، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته ، فيما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرجل أبعد كان فى الإيثار أحق وأقرب ، وكلما كان أقرب كان فى المنافع واللذائذ أبعد ، وفى الجهاد والمشقة والتضحية أقرب وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقة الرقيقة التى لا يتخيلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال ، كان كل ذلك مدرسة جامعة عالمية خالدة ، ينسب إليها ويلتحق بها أجيال بعد أجيال . ويتخرج فيها علماء وزعماء وملوك وحكام وعباد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والإنسانية الأولية ثم فاقوا فيها ، وبذوا العالم والأمم فى سمو أخلاقهم ولطافة حسهم ورقة شعورهم ، ودقة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملكهم لأسباب البذخ والترف ، ومفاتيح الخزائن وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفراد يتفاوت بهم الزمان ويبعد بهم المكان ، ولكنهم زرع الإيمان ، وغرس النبوة ، وثمرة الدعوة الإسلامية ، ومأثرة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإنتاجها ، وكل حسن فى سيرتهم وأخلاقهم مقتبس من مشكاة النبوة المحمدية العالمية ، لا منة لآبائهم وبيئتهم وثقافتهم وذكائهم على هؤلاء الأفراد فى هذه العقيدة ، وفى هذه السيرة ، وفى هذه الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماته ولولا حبهم العميق له

وخضوعهم لتأثير سيرته ، ولولا فضل الإسلام ، لكانوا فى العقيدة عباد الأصنام . وفى الأخلاق أشبه بالسباع والأنعام . لا توحيد ولا تقوى . ولا زهد ولا إيثار ، ولا عفو ولا سماحة ، ولا رقة عاطفة ولا كرم خلق .

## بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم :

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها . ومما غرسته النبوة المحمدية بعيدا عن مهد الإسلام . وعن جزيرة العرب ، بعيداً عن عهد الرسالة والصحابة . بعيداً عن الأصل المضرى . والدم العربى . وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردى العجمى فى القرن السادس الهجرى(١) يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شداد :

« إنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب الاجرم واحد صورى ، ما علمت وزنه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم . ولم يفضل درهم واحد .

---

(١) توفى صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ .

وكان رحمه الله يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه . وسمعته يقول فى معرض حديث جرى : يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب . فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلان(١) .

ولما مات هـــذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة فى الجنوب ، لم توجد فى خزائنه ما يكفنونه وينفقون على تجهيزه ! يقول ابن شداد :

« ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه . فما امكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض . حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين . وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه قد أحضر القاضى الفاضل من وجه حل عرفه(٢) .

ويتحدث مؤرخه الانجليزى الشهير ( Stanely Lanpool ) فى كتابه المشهور ( صلاح الدين ) فيقول :

وإذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم وتلك السماحة التى عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ١٣ ، ١٤

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٢٥١

حين فتحه ورده للإسلام كان ذلك كافيا ليثبت أنه لم يكن أعظم رجل في عصره فحسب في علو الهمة وفي العظمة والشهامة والفتوة ، بل كان أعظم رجل في هذا الشأن في كل عصر وزمان(١) .

ولم يزل هذا التأثير قويا سخياً بعيد المدى واسع الأرجاء والآفاق. يصنع عجائبه ويظهر روائعه في بلاد تقع في أقصى العالم الإسلامي . وفي شعوب حديثة العهد بالاسلام . وفي رجال لا يتصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسب أو لغة أو ثقافة . يسلم أحدهم على يد داعية إسلامي . أو مرشد روحاني وينشأ في أولاده واحفاده الأقربين ملك في صورة ملك ، وزاهد فقير في لباس ملك . خشية وتقوى . وعدل وقسط . وعطف ومواساة . ورحمة وبر ، واحتساب ونية . وصدق وإخلاص . لا توجد أمثلته في زهاد الأمم الأخرى وأحبارها ورهبانها ، فضلا عن ملوكها وسلاطينها . وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلامي الطويل الزاهي بهذه النماذج الرفيعة . على قصة واحدة لا تبلى جدتها وطرافتها . ولا تنتهى روعتها على مر الأيام وكثرة الإعادة والتكرار ،

كان بين السلطان مظفر الحليم ملك كجراد ( م ٩٣٢ ﻫ ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسة قديمة . وقد كان الخلجي معتديا مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجراد الإسلامية . التي يحكمها مظفر الحليم ، ويضطر الحليم إلى

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٢٠٥

الدفاع عن ملكه ورد الغارة عليه . حتى حدث ما غير الوضع وجعل من الملك المعتدى المدل بقوته وأبهته طريداً لا جئاً يطلب من عدوه الكريم النفس الغوث والنجدة . فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثني مندلى رأى واغتصب بلاده . ولم يجد السلطان محمود ملجأ إلا فى عطف عدوه القديم مظفر الحليم ، وفى حميته الإسلامية . فلقى منه من البر والكرم وحسن الإجابة وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجل لا تأخذه حمية الجاهلية ، ولا يؤمن بالفلسفة المادية « الانتهازية » فلم يستغل هذا الوضع ، ولم يشمت بالعدو والسليب الضعيف ؛ بل انتهز هـــذه الفرصة لإرضاء الله وحده ولإخزاء الشيطان ، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو ، واهتم بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته وحرية بلاده فى سبيل المحافظة على حرية بلد إسلامى منافس ، وإعادة الإسلام إلى مركزه واعتباره فى هذه الدولة ، وتقدمت القوات البرهمية والإمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندو ، ووقعت حرب طاحنة مجنونة ، كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، وأحرقت الأميرات الوثنيات ، والحرم الملكى أنفسهن على عادة ملوك راجبوت ، وعادت البلاد إلى الإسلام .

وهنا تجلى النبل الإنسانى والخلق الإسلامى فى أروع مظاهرها ، فقد أشار أهل الرأى من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لقصورها البديعة التى لا يوجد لها نظير

فى الهند ، وقلاعها الحصينة وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً واسترقها فاستحقها ، والملك للقوة والغلبة ، والبلاد المنتصر .

ولما سمع الملك هـذا الرأى وعرف ما تحدث به القادة نفوسهم ، أرسل إلى السلطان محموه يأمره بأن لا يأذن لأحد فى جيشه فى دخول البلد ، وسأله السلطان البقاء فى القلعة ، والاستجمام فيها مدة من الزمان ، فلم يقبل ، وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد والعودة إلى ثكناتها ، وقال للخلجى إنى لم أتقدم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده ، وطمعا فى ثوابه وعملا بقوله : « **وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر**(١) » والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله(٢) وقد تحقق ذلك ، وبيض الله وجهى ووجهك ، وبيض وجه الإسلام ، وقد سمعت من أصحابى ما لو عملت به لحبط عملى وضاع جهادى ، والفضل لك ليس لى ، فقد أكرمتنى وكنت سبباً فى هـذه السعادة ، وأنا قافل إلى بلادى لا أريد أن أحبط عملى وأخلط عملا صالحاً وآخر سيئاً . وهنا تحرك الجيش المنصور اللجب، ورفع الفرسان أعنة خيلهم وانصرفوا راشدين .

وبعد أن فتح المظفر « مندو » ودخل محمود فى البلد عزيزاً مكرما، أخذ صديقه المظفر ليتنزه ويطلع على ما فى هذا البلد من خيرات وخزائن وجواهر وتحف ، فكان الأمر عجباً، وكان البلد آية فى الجمال

---

(١) الانفال : ٧٢ (٢) معنى الحديث

والخصب والثروة وكثرة الترف وكثرة الجوارى الحسان والفتيات البارعات فى الجمال ، والسلطان مظفر مطرق رأسه غاض بصره لا ينظر لا إلى هذا المال ولا إلى هذا الجمال ، فقال له محمود وهو يمر بصديقه أمام الأميرات والحشم ، اوبين الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيينه بثغور بواسم : مالك ياسيدى لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى هذا المنظر ؟! فقال المظفر : إنه لا يحل لى يامحمود ، وقد قال الله : « **قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم** » فقال الملك الذكى : إنهن إمائى ، وأنا عبدك ، قد أسرتنى وملكتنى بإحسانك فهم عبيد وهن إماء لك مرتين . ، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق ، وعرف أن ما حرمه الله لا يحله أحد .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه وعفة باطنه وروحه ، وشدة خضوعه لتأثير الإسلام ولتأثير المثل العليا الإسلامية التى نشأ على حبها والتمسك بها فى حياته .

إنه رجل يغيب نسبه الاسلامى بعد واسطتين أو ثلاث فى دياجير الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الإسلامية بعد جده الذى أسلم فى أيام فيروز ، تغلق فى القرن الثامن الهجرى ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية . لا يعرف أصلها ولا يفهم معناها ، فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع إلا فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم التى دخلها مخلصاً جاداً مقدراً للإسلام نعمته ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم فضله ورفده ، مقبلا على هذا الدين بشغف وإجلال ، كارهاً للدين الذى كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته .

## انتاج هذه المدرسة المباركة الدائم فى كل أمم وفى جميع العصور

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجبة المنتجة من أبناء كرام برره فى بلاد الشرق والغرب ، وفى بلاد العرب والعجم ، وفى قرون متقدمة ومتوسطة ومتأخرة ، وكم لهؤلاء الأبناء البارين العظماء من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنسانية ، وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها فى فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ، وذكاء أبى حنيفة والشافعى ، وصلابة مالك وأحمد بن حنبل ، وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالى ، وروحانية عبد القادر الجيلانى ، وتأثير ابن الجوزى ، وطموح محمد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوى ، ورقة عاطفة نظام الدين الدهلوى ، وسماحة فيروز شاه الخلجى ، وتبحر ابن تيمية الحرانى ، وحسن إدارة شير شاه السورى ، وقوة إرادة أورنك زيب التيمورى ، وفى معارف شرف الدين يحي المنيرى ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السرهندى ، ودعوة محمد عبد الوهاب التميمى ، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين والعلماء الربانيين ، وإن الفضل فى كل هذه العبقرية وفى مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، وإلى العهد الزاهر الجديد الذى افتتح ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجدت فيه المواهب الإنسانية الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها ، ولا تزال هذه المدرسة — مهما قسا عليها الزمان وتنكر لها

المتنكرون — تنجب أفذاذاً فى التاريخ وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتغيث الانسانية بقادة مخلصين ، وعلماء ربانيين « **اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**(١) » ولسان الغيب يهتف : « **فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين**(٢) » .

* * *

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الأنعام : ٨٩

# فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة



## سمات النبوة وخصائص الأنبياء من ٣٣ — ٦٤



## أئمة الهدى وقادة الإنسانية من ٦٥ — ٨٤

الموضوع | الصفحة



## بين الإرادة الآلهة والأسباب المادية من ٨٥ — ١٠٤

الموضوع — الصفحة



## خاتم النبيين من ١٠٥ — ١١٧

الموضوع الصفحة

## خير أمة أُخرجت للناس من ١١٨ — ١٣٨



## ● فهرس الكتاب ١٣٩ — ١٤٣




الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
تليفون - ٩١٤٢٢٣

---

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحاني بالقاهرة ت ٩١٩٣٧٤ ١

## هذا الكتاب

• « إن أقوى سبب لانحراف المثقفين نحو المفاهيم والقيم المادية والمناهج الفكرية الغربية ، فى تفسير الإسلام وفى حقل الإصلاح العام : هو بعدهم عن منهج (**النبوة**) ، وجهلهم لقيمتها وفضلها ... »

هكذا يقدم علامة الإسلام الكبير فى ديار الهند : « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن »

• يعالج الكتاب : « **حاجة الانسانية إلى أنبياء** » ، مبيناً أن النبوة هى الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهدايا الكاملة

• ويتناول : « **سمات النبوة وخصائص الأنبياء** » ، مبرزاً الفارق بين الأنبياء وبين الحكماء والمصلحين ، وموضحاً كيف كان هؤلاء « أئمة الهدى وقادة الإنسانية »

• ثم يعرض للمعركة التاريخية التى خاضها الأنبياء « **بين الارادة الالهية والأسباب المادية** »

• وأخيراً يقدم الكتاب على سبيل التطبيق والتخصيص : « **خاتم النبيين** » و « **خير أمة أخرجت للناس** »

وتدوى كلمات **الأستاذ أبى الحسن الندوى** بالنذير والأمل المنير :

« وهذا هو العالم العربى موزع على نفسه ، لم يحتل مكانه اللائق فى زعامة العالم الإسلامى أو قيادة العالم الإنسانى ... »

• ولكن المدرسة المحمدية العالمية الخالده — رغم كل شئ لاتزال تنجب أفذاذا فى التاريخ . . . ولسان الغيب يهتف : فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » !

ويسر « **مكتبة وهبة** » أن تقدم هذا القبس المضئ من « ديار الهند » إلى أبناء العروبة والإسلام ؟

